بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة مريم

مقدمة :

سورة مريم سورة مكية .

قال القرطبي : وهي مكية بإجماع.

عن أم سلمة –في قصة الهجرة إلى الحبشة من مكة– أن جعفر بن أبي طالب ﷺ قرأ صدر هذه السورة على النجاشي، فبكى النجاشي حتى أخضل لحيته وبكى أساقفته ، ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء موسى ليخرج من مشكاة واحدة) رواه أحمد .

سبب تسميتها :

سميت بذلك لذكر قصة (مريم) .

قال ابن عاشور : ووجه التسمية أنها بسطت فيها قصة مريم وابنها وأهلها قبل أن تفصل في غيرها.

فضلها :

عن ابْن مَسْعُودٍ ﷺ (قَالَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ إِنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الأُوَلِ وَهُنَّ مِنْ تِلاَدِي) رواه البخاري .

قَوْلُهُ (مِنَ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ) أَيْ: مِنْ قَدِيمِ مَا نَزَلَ، وَقَوْلُهُ (وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي) أَيْ: مِنْ قَدِيمِ مَا قَنِيتُ وَحَفِظْتُ. وَالتَّالِدُ فِي لُغَتِهِمْ: قَدِيمُ الْمَالِ وَالْمَتَاعِ، وَالطَّارِفُ حَدِيثُهُ وَجَدِيدُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أغراضها :

غرضها تقرير التوحيد ، وتنزيه الله جل وعلا عما لا يليق به ، وتثبيت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء ، ومحورُ هذه السورة يدور حول التوحيد ، والإيمان بوجود الله ووحدانيته ، وبيان منهج المهتدين ، ومنهج الضالين .

وعرضت السورة الكريمة لقصص بعض الأنبياء مبتدئةً بقصة نبي الله كريا وولده يحيى الذي وهبه على الكبر من امرأة عاقر ولا تلد، ولكن الله قادر على كل شيء، يسمع دعاء المكروب، ويستجيب لنداء الملهوف، ولذلك استجاب الله دعاءه ورزقه الغلام النبيه.

وعرضت السورة لقصة أعجب وأغرب، تلك هي قصة "مريم العذراء" وإنجابها لطفل من غير أب، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة الخارقة بميلاد عيسى من أم بلا أب، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلةً أمام الأبصار، بعظمة الواحد القهار.

(كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)) .

[مريم : ١-٦] .

==========

(**كهيعص**) تقدم شرحها .

(**ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا**) أي : هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا .

فالمرادُ برحمةِ الله لزكريَّا هنا: إجابتُه إيَّاه حينَ دعاه، وسألَه الولَدَ.

وممَّن قال بذلك: الواحدي ، والشوكاني، وابن عاشور.

قال السعدي : قوله تعالى (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا) سنقصه عليك، ونفصله تفصيلا يعرف به حالة نبيه زكريا، وآثاره الصالحة، ومناقبه الجميلة، فإن في قصها عبرة للمعتبرين، وأسوة للمقتدين، ولأن في تفصيل رحمته لأوليائه، وبأي: سبب حصلت لهم، مما يدعو إلى محبة الله تعالى، والإكثار من ذكره ومعرفته، والسبب الموصل إليه.

(**إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا**) أي : حين ناجى ربه ودعاه بصوتٍ خفي لا يكاد يسمع قال المفسرون: لأن الإخفاء في الدعاء أدخلُ في الإخلاص وأبعدُ من الرياء .

ودعاء زكريا هذا لم يبين الله في هذا الموضع مكانه ولا وقته ، ولكنه أشار إلى ذلك في سورة آل عمران في قوله (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يا مريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً) فقوله (هنالك) أي في ذلك المكان الذي وجد فيه ذلك الرزق عند مريم. وقال بعضهم: «هنالك» أي في ذلك الوقت، بناء على أن هنا ربما أشير بها إلى الزمان.

وقد اختُلِف في سببِ إخفائِه هذا النِّداءَ:

فقيل: أخفاه مِن قَومِه؛ لئلَّا يُلامَ على مسألةِ الولَدِ عند كِبَرِ السِّنِّ، فيقولوا: انْظُروا إلى هذا الشَّيخِ يَسألُ على كبرِه الولَدَ.

ورجحه ابن عطية ، والقرطبي .

وقيل: إنَّه دعا في جوفِ اللَّيلِ، وهو ساجدٌ.

وقيل: لأنَّ الإخفاءَ أقربُ إلى الإخلاصِ، وأبعدُ مِن الرياءِ.

وهذا الصحيح .

ورجحه : الطبري ، والثعلبي ، والواحدي ، وابن الجوزي ، والآلوسي ، والسعدي ، والشنقيطي .

قال الطبري: قوله تعالى (إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا) يقول حين دعا ربه، وسأله بنداء خفي، يعنى: وهو مستسرّ بدعائه ومسألته إياه ما سأل، كراهة منه للرياء.

وقال ابن الجوزي : وهذه القصة تدل على أن المستحب إسرار الدعاء ، ومنه الحديث : " إنكم لا تدعون أصمّ ".

وقال ابن جزي : أخفاه لأنه يسمع الخفي كما يسمع الجهر، ولأن الإخفاء أقرب إلى الإخلاص وأبعد من الرياء، ولئلا يلومه الناس على طلب الولد .

وقال القاسمي : وقد راعى أدب الدعاء ، وهو إخفاؤه ، لكونه أبعد عن الرياء ، وأدخل في الإخلاص .

وقال الشنقيطي : ... وإنما كان الإخفاء أفضل من الإظهار لأنه أقرب إلى الإخلاص، وأبعد من الرياء. فقول من قال: إن سبب إخفائه دعاءه أنه خوفه من قومه أن يلوموه على طلب الولد، في حالة لا يمكن فيها الولد عادة لكبر سنه وسن امرأته، وكونها عاقراً. وقول من قال: إنه أخفاه لأنه طلب أمر دنيوي، فإن أجبا الله دعاءه فيه نال ما كان يريد. وإن لم يجبه لم يعلم ذلك أحد، إلى غير ذلك من الأقوال، كل ذلك ليس بالأظهر. والأظهر أن السر في خفائه هو ما ذكرنا من كون الإخفاء أفضل من الإعلان في الدعاء.

وقال ابن عاشور : وإنما كان خفياً لأن زكريا رأى أنه أدخل في الإخلاص مع رجائه أنّ الله يجيب دعوته لئلا تكون استجابته مما يتحدث به الناس .

وقال السعدي : وناداه نداءً خفياً، ليكون أكمل وأفضل وأتم إخلاصاً .

قال ابن القيم : الدعاء سراً أفضل من الجهر، لأسباب ذكرها ابن القيم:

أولاً: أنه أعظم إيماناً، لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع دعاءه الخفي.

ثانياً: أنه أعظم في الأدب والتعظيم، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات.

ثالثاً: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء.

رابعاً: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامساً: أنه أبلغ في جمعه القلب على الله تعالى في الدعاء فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته فكلما خفض صوته كان أبلغ في صمده وتجريد همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى.

سادساً: وهو من النكت السرية البديعة جداً أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه فيسأله مسألة مناجاة للقريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا بقوله (إذ نادى ربه نداء خفياً) فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه وإنه أقرب إليه من كل قريب وتصور ذلك أخفى دعاءه ما أمكنه.

سابعاً: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه، وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعاً صوته، فإنه لا يطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته.

ثامناً: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبيثة من الجن والأنس فشوشت عليه ولا بد ومانعته وعارضته.

تاسعاً: أن أعظم النعم الإقبال على الله والتعبد له، والانقطاع إليه، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته على الحاسد.

وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار فأصبح يقلب كفيه.

وقد قال يعقوب ليوسف (لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين).

ولهذا يوصى العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله وأن لا يطلعوا عليه أحدا ويتكتمون به غاية التكتم. (بدائع الفوائد)

(**قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي**) أي: قال زكريَّا: يا رَبِّ، إنِّي رقَّ عَظمي، وضعُفَت قُوَّةُ بَدَني .

قال ابن الجوزي : وإنما خصّ العظم ، لأنه الأصل في التركيب.

وقال القرطبي : وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن ، وبه قوامه ، وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته ؛ ولأنه أشدّ ما فيه وأصلبه ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن منه.

قال ابن عاشور : والله يجيب المضطر إذا دعاه ، فليس سؤاله الولدَ سؤال توسع لمجرد تمتع أو فخر.

ووصَف من حاله ما تشتد معه الحاجة إلى الولد حالاً ومثالاً ، فكان وهن العظم وعموم الشيب حالاً مقتضياً للاستعانة بالولد مع ما يقتضيه من اقتراب إبان الموت عادة ، فذلك مقصود لنفسه ووسيلة لغيره وهو الميراث بعد الموت.

(**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**) أي : وانتشر بياض الشيب في رأسي .

لأن الشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت ورائده، ونذيره، فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله، لأنه يدل على التبري من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته. (السعدي)

قال ابن كثير : المرادُ من هذا: الإخبارُ عن الضَّعفِ والكِبَرِ، ودلائِلِه الظَّاهرةِ والباطِنةِ .

قال القرطبي : يستحب للمرء أن يذكر في دعائه نِعَم الله تعالى عليه وما يليق بالخضوع؛ لأن قوله تعالى (وَهَنَ العظم مِنِّي) إظهار للخضوع.

قال ابن الجوزي : قوله تعالى (.. إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي) أي : ضعف وفي ذكره وهن العظم دون اللحم وجهان :

أحدهما : أنه لما وهن العظم الذي هو أقوى كان وهن اللحم والجلد أولى.

الثاني : أنه اشتكى ضعف البطش ، والبطش إنما يكون بالعظم دون اللحم.

وهذا الذي ذكره الله هنا عن زكريا في دعائه من إظهار الضعف والكر جاء في مواضـــع أخر. كقوله هنا (وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً) وقوله (وَقَدْ بَلَغَنِي الكبر) وهذا الذي ذكره هنا من إظهار الضعف يدل على أنه ينبغي للداعي إظهار الضعف والخشية والخشوع في دعائه. (أضواء)

وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) أي: لم تخيب دعائي في وقت من الأوقات، بل عودتني الإحسان والجميل، فاستجب دعائي الآن، كما كنت تستجيبه فيما مضى .

قال القرطبي : قال العلماء : يستحب للمرء أن يذكر في دعائه نِعَم الله تعالى عليه وما يليق بالخضوع ؛ لأن قوله تعالى : (وَهَنَ العظم مِنِّي) إظهار للخضوع.

قال البيضاوي : هذا توسل بما سلف له من الاستجابة ، وأنه تعالى عوده بالإجابة وأطمعه فيها ، ومن حق الكريم أن لا يخيب من أطمعه .

وقال السعدي : وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقا، أن يتمم إحسانه لاحقا.

(**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي**) أي : خفت بني العم والعشيرة ، من بعد موتي أن يضيعوا الدين ، ولا يُحسنوا وراثة العلم والنبوة

قال ابن كثير : وجهُ خوفِه أنَّه خَشِي أنْ يتصرَّفُوا مِن بعدِه في النَّاسِ تصرُّفًا سيِّئًا .

قال السعدي : وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحه، وأن طلبه للولد، ليس كطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولدا، يقوم بالدين من بعده .

(**وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا**) أي: وكانت امرأتي عَقيمًا لا تَلِدُ أصلًا .

قال الشنقيطي : ظاهر في أنها كانت عاقراً في زمن شبابها. والعاقر : هي العقيم الت ي لا تلد وهو يطلق على الذكر والأنثى.

وقد أشار تعالى إلى أنه أزال عنها العقم. وأصلحها. فجعلها ولوداً بعد ان كانت عاقراً في قوله عز وجل (فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) فهذا الإصلاح هو كونها صارت تلد بعد أن كانت عقيماً.

وقول من قال : إن إصلاحها المذكور هو جعلها حسنة الخلق بعد أن كانت سيئة الخلق لا ينافي ما ذكر لجواز أن يجمع له بين الأمرين فيها ، مع أن كون الإصلاح هو جعلها ولوداً بعد العقم هو ظاهر السياق ، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير ، ومجاهد وغيرهم. والقول الثاني يروى عن عطاء. (أضواء)

(**فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا**) الأكثرون على أنه طلب الولد وقال آخرون بل طلب من يقوم مقامه ولداً كان أو غيره والأقرب هو الأول لثلاثة أوجه.

الأول : قوله تعالى في سورة آل عمران حكاية عنه (قَالَ رَبّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرّيَّةً طَيّبَةً) .

والثاني : قوله في هذه السورة (هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءالِ يَعْقُوبَ) .

والثالث : قوله تعالى في سورة الأنبياء (وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً) وهذا يدل على أنه سأل الولد لأنه قد أخبر في سورة مريم أن له موالي وأنه غير منفرد عن الورثة وهذا وإن أمكن حمله على وارث يصلح أن يقوم مقامه لكن حمله على الولد أظهر.

قال ابنُ عاشورٍ: ومَعنى (مِنْ لَدُنْكَ) أنَّه مِن عندِ اللهِ عِنديَّةً خاصَّةً؛ لأنَّ المتكَلِّمَ يَعلَمُ أنَّ كُلَّ شَيءٍ مِن عندِ اللهِ بتقديرِه وخَلْقِه الأسبابَ ومُسَبِّباتِها تَبعًا لخَلقِها، فلمَّا قال: مِنْ لَدُنْكَ؛ دلَّ على أنَّه سأل وليًّا غيرَ جارٍ أمرُه على المعتادِ مِن إيجادِ الأولادِ؛ لانعدامِ الأسبابِ المعتادةِ، فتكونُ هِبَتُه كرامةً له).

قال الشنقيطي: وقولُه تعالَى في هذه الآيةِ الكريمةِ: (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا) يعني بهذا الوليِّ الولَدَ خاصَّةً دونَ غيرِه مِنَ الأولياءِ، بدليلِ قولِه تعالَى في القصَّةِ نفسِها (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً) .

وأشارَ إلى أنَّه الولَدُ أيضًا بقولِه (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) فقولُه: لَا تَذَرْنِي فَرْدًا، أي: واحدًا بلا وَلَدٍ . (أضواء)

قال ابن العربي : رَجَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ فِي الْوَلَدِ لِوَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ دَعَاهُ لِإِظْهَارِ دِينِهِ ، وَإِحْيَاءِ نُبُوَّتِهِ ، وَمُضَاعَفَةِ أَجْرِهِ ، فِي وَلَدٍ صَالِحٍ نَبِيٍّ بَعْدَهُ ، وَلَمْ يَسْأَلْهُ لِلدُّنْيَا.

الثَّانِي : لِأَنَّ رَبَّهُ كَانَ قَدْ عَوَّدَهُ الْإِجَابَةَ ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) .

وَهَذِهِ وَسِيلَةٌ حَسَنَةٌ أَنْ يَتَشَفَّعَ إلَيْهِ بِنِعَمِهِ ، وَيَسْتَدِرَّ فَضْلَهُ بِفَضْلِهِ.

يُرْوَى أَنَّ حَاتِمَ الْجَوَادَ لَقِيَهُ رَجُلٌ ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ حَاتِمٌ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا الَّذِي أَحْسَنْت إلَيْهِ عَامَ أَوَّلٍ.

قَالَ : مَرْحَبًا بِمَنْ تَشَفَّعَ إلَيْنَا بِنَا. (أحكام القرآن)

قال القرطبي : إن قيل : كيف أقدم زكريا على مسألة ما يخرق العادة دون إذن؟ فالجواب أن ذلك جائز في زمان الأنبياء.

وفي القرآن ما يكشف عن هذا المعنى ؛ فإنه تعالى قال : (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يا مريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) فلما رأى خارق العادة استحكم طمعه في إجابة دعوته ؛ فقال تعالى (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً) .

(**يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ**) أي : يرثني ويرث أجداده في العلم والنبوة ، قال البيضاوي : المراد وراثة الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورثون المال .

وهذا القول هو الراجح : أن المراد بالإرث إرث النبوة والعلم لا إرث المال .

واختاره : ابن جزي ، وابن كثير ، والشوكاني ، والقاسمي ، والسعدي ، والشنقيطي .

وقيل : المراد إرث المال .

والصحيح الأول لوجوه :

أ-أنه صح عن النبي ﷺ أنه قال (نحن معاشر الأنبياء لا نورث) .

ب-أنه لا يليق بنبي أن يأسف على مصير ماله بعد موته ، إذا وصل إلى وارثه المستحق له شرعاً.

ج-أن زكريا عليه السلام لم يكن ذا مال ، فقد قال ﷺ : كان زكريا نجاراً .

د-أن النبي لا يطلب ولداً ليرث ماله .

هـ-أنه لو كان المراد المال لما خصه من بين إخوته بذلك ، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة ، إذ من المعلوم في جميع الشرائع أن الولد يرث أباه ، فلولا أنها ولاية خاصة لما أخبر بها .

قال الشنقيطي : وبهذا التفسير تعلم ان معنى قومه « يرثني » أنه إرث وعلم ونبوة ، ودعوة إلى الله والقيام بدينه ، لا إرث مال.

ويدل لذلك أمران :

أحدهما : قوله (وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) ومعلوم أن آل يعقوب انقرضوا من زمان ، فلا يورث عنهم إلا العلم والنبوة والدين.

والأمر الثاني : ما جاء من الأدلة على أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يورث عنهم المال ، وإنما يورث عنهم العلم .

وكذلك قوله (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ) فتلك الوراثة أيضاً وراثة علم ودين .

قال ابن كثير : ... وَجْهُ خَوْفِهِ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَصَرَّفُوا مِنْ بَعْدِهِ فِي النَّاسِ تَصَرُّفًا سَيِّئًا، فَسَأَلَ اللَّهَ وَلَدًا يَكُونُ نَبِيًّا من بعده ليسوسهم بنبوته ما يُوحَى إِلَيْهِ، فَأُجِيبَ فِي ذَلِكَ لَا أَنَّهُ خَشِيَ مِنْ وِرَاثَتِهِمْ لَهُ مَالَهُ .

الأول : فَإِنَّ النَّبِيَّ أَعْظَمُ مَنْزِلَةً وَأَجَلُّ قَدْرًا مِنْ أَنْ يُشْفِقَ على ماله إلى ما هذا حده، وأن يَأْنَفَ مِنْ وِرَاثَةِ عَصَبَاتِهِ لَهُ وَيَسْأَلُ أَنْ يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم هذا وجه.

الثَّانِي : أَنَّهُ لَمْ يُذْكَرْ أَنَّهُ كَانَ ذَا مَالٍ بَلْ كَانَ نَجَّارًا يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدَيْهِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَجْمَعُ مَالًا وَلَا سيما الأنبياء، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَزْهَدَ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا.

الثَّالِثُ : أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ) وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ (نَحْنُ مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَث) ، وَعَلَى هَذَا فَتَعَيَّنَ حَمْلُ قَوْلِهِ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي عَلَى مِيرَاثِ النُّبُوَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ كقوله (وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ) أَيْ فِي النُّبُوَّةِ إِذْ لَوْ كَانَ فِي الْمَالِ لَمَا خَصَّهُ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِ بِذَلِكَ، وَلَمَا كَانَ فِي الْإِخْبَارِ بِذَلِكَ كَبِيرُ فَائِدَةٍ، إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ الْمُسْتَقِرِّ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ وَالْمِلَلِ أَنَّ الْوَلَدَ يَرِثُ أَبَاهُ، فَلَوْلَا أَنَّهَا وِرَاثَةٌ خَاصَّةٌ لَمَا أَخْبَرَ بِهَا، وَكُلُّ هَذَا يُقَرِّرُهُ وَيُثْبِتُهُ مَا صَحَّ فِي الْحَدِيثِ : نَحْنُ مُعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ . (ابن كثير)

وقال الشوكاني : واخْتَلَفُوا فِي وَجْهِ الْمَخَافَةِ مِنْ زَكَرِيَّا لِمَوَالِيهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَقِيلَ: خَافَ أَنْ يَرِثُوا مَالَهُ، وَأَرَادَ أَنْ يَرِثَهُ وَلَدُهُ، فَطَلَبَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَرْزُقَهُ وَلَدًا. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّهُمْ كَانُوا مُهْمِلِينَ لِأَمْرِ الدِّينِ، فَخَافَ أَنْ يَضِيعَ الدِّينُ بِمَوْتِهِ، فَطَلَبَ وَلِيًّا يَقُومُ بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ. وَهَذَا الْقَوْلُ أَرْجَحُ مِنَ الْأَوَّلِ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يُوَرِّثُونَ، وَهُمْ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يَعْتَنُوا بِأُمُورِ الدُّنْيَا، فَلَيْسَ الْمُرَادُ هُنَا وِرَاثَةَ الْمَالِ، بَلِ الْمُرَادُ وِرَاثَةُ الْعِلْمِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْقِيَامُ بِأَمْرِ الدِّينِ، وَقَدْ ثبت عن نبينا ﷺ أَنَّهُ قَالَ (نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُوَرِّثُ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ). (فتح القدير)

(**وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**) أي : واجعَلْ وَلَدي –يا رَبِّ– مَرْضيًّا عندك وعندَ عِبادِك، صالحًا في دينِه وخُلُقِه وأعمالِه .

قال الرازي : قدم زكريا عليه السلام على طلب الولد أموراً ثلاثة :

أحدها : كونه ضعيفاً .

والثاني : أن الله ما رد دعاءه البتة .

والثالث : كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين ، ثم صرح بسؤال الولد ، وذلك مما يزيد الدعاء توكيداً ، لما فيه من الاعتماد على حول الله وقوته ، والتبري عن الأسباب الظاهرة .

فائدة :

فضل الإخلاص في العبادة ، وأن الإخلاص في العبادة يعظمها ويكبرها ، وفي الدعاء يكون أقرب للإجابة .

أمثلة :

قال ﷺ (أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة) متفق عليه .

قال ابن قدامة : والتطوع في البيت أفضل ... ولأن الصلاة في البيت أقرب إلى الإخلاص، وأبعد من الرياء، وهو من عمل السر، وفعله في المسجد علانية والسر أفضل .

وقال ﷺ (أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل) رواه مسلم .

قال ابن رجب : إنما فضلت صلاة الليل على صلاة النهار، لأنها أبلغ في الإسرار وأقرب إلى الإخلاص .

وقال ﷺ (إن امرأة بغيا رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته به فغفر لها) وفي لفظ في الصحيحين (أنها كانت بغياً من بغايا بني إسرائيل) .

وقال ﷺ (بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له) .

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها ، وإلا فليس كل بغي سقت كلباً يغفر لها .

وكذلك هذا الذي نحَّى غصن الشوك عن الطريق ، فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه ، فغفر له بذلك .

وقال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله:...ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) متفق عليه

قال النووي : وَفِي هَذَا الْحَدِيث فَضْل صَدَقَة السِّرّ، قَالَ الْعُلَمَاء: وَهَذَا فِي صَدَقَة التَّطَوُّع فَالسِّرّ فِيهَا أَفْضَل؛ لِأَنَّهُ أَقْرَب إِلَى الْإِخْلَاص وَأَبْعَد مِنْ الرِّيَاء .

قَالَ الْعُلَمَاء : وَذَكَرَ الْيَمِين وَالشِّمَال مُبَالَغَة فِي الْإِخْفَاء وَالِاسْتِتَار بِالصَّدَقَةِ .

وقال ﷺ (وَرَجُل ذَكَرَ اللَّه تَعَالَى خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) .

قال النووي : فِيهِ فَضِيلَة الْبُكَاء مِنْ خَشْيَة اللَّه تَعَالَى ، وَفَضْل طَاعَة السِّرّ لِكَمَالِ الْإِخْلَاص فِيهَا . (شرح مسلم : ٤٨١/٣)

وقال ﷺ (دَعْوَة الْمَرْء الْمُسْلِم لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْب مُسْتَجَابَة ، عِنْد رَأْسه مَلَك مُوَكَّل ، كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَك الْمُوَكَّل بِهِ : آمِينَ وَلَك بِمِثْلٍ) رواه مسلم .

قال النووي : أَمَّا قَوْله ﷺ (بِظَهْرِ الْغَيْب) فَمَعْنَاهُ : فِي غَيْبَة الْمَدْعُوّ لَهُ، وَفِي سِرّه؛ لِأَنَّهُ أَبْلَغ فِي الْإِخْلَاص. (شرح مسلم ٩٦/٩)

وقال المناوي : إن دعاء السر أقرب إلى الإخلاص وأبعد عن الرياء . (فيض)

فائدة : ٢

في هذه الآيات بعض آداب الدعاء :

أولاً : إخفاء الدعاء .

لقوله (نداء خفياً) لأنه أخلص لله .

ولأنه استجابة لأمر الله في قوله (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) .

ثانياً : إظهار الضعف والعجز بين يدي الله تعالى .

لقوله (إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) .

ثالثاً : التوسل إلى الله بسابق إحسانه .

لقوله (**وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا**) .

قال البيضاوي : هذا توسل بما سلف له من الاستجابة ، وأنه تعالى عوده بالإجابة وأطمعه فيها ، ومن حق الكريم أن لا يخيب من أطمعه .

رابعاً : إحسان الظن بالله تعالى وأنه مجيب الدعاء .

فزكريا عليه دعا الله مع كبر سنه وكانت زوجته عاقراً ، لكن لثقته بالله دعا الله فاستجاب الله .

وفي الحديث قال تعالى (أنا عند حسن ظن عبدي بي) .

فائدة : ٣

أن دعاء الله وسؤاله باسم ووصف الربوبية من أعظم الأدعية وأفضلها وأقربها للقبول والاستجابة .

قال ابن رجب : الالحاح على الله بتكرير ذكر ربوبيته من أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء .

وعن عطاءٍ قال : ما قال عبدٌ يا ربِّ يا ربِّ يا ربِّ ثلاث مرات ، إلاّ نظر الله إليه ، فذكر ذلك للحسن ، فقال : أما تقرءون القرآن ؟ ثم تلا قوله تعالى (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ) .

ومن تأمَّل الأدعية المذكورة في القرآن وجدها غالباً تفتتح باسم الرَّبِّ :

كقوله تعالى (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) . (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) وقوله (رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) ومثل هذا في القرآن كثير . (جامع العلوم)

فائدة : ٤

دلّت هذه الآية على طلب الولد، وهي سُنّة المرسلين والصدّيقين.

قال الله تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً).

وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وَقّاص قال: أراد عثمان أن يتبتّل فنهاه رسول الله ﷺ ولو أجاز له ذلك لاختصينا.

وقد ترجم البخاري على هذا (باب طلب الولد) وقال ﷺ لأبي طَلْحة حين مات ابنه (أعْرَسْتم الليلة؟ قال نعم قال: بارك الله لكما في غابر ليلتكما، قال فحملت.

وفي البخاري: قال سفيان فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن.

وترجم أيضاً (باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة) وساق حديث أنس بن مالك قال قالت " أم سُليم: يا رسول الله، خادمك أنس أدع الله له، فقال: اللّهُمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته.

وقال ﷺ (اللّهُمّ اغفر لأبي سَلَمة وارفع درجته في المهديَّين فيما واخلفه في عَقِبه في الغابرين).

وقال ﷺ (تزوجوا الوَلود الوَدود فإني مكاثر بكم الأمم) أخرجه أبو داود.

والأخبار في هذا المعنى كثيرة تحث على طلب الولد وتندب إليه؛ لما يرجوه الإنسان من نفعه في حياته وبعد موته.

قال ﷺ (إذا مات أحدكم انقطع عمله إلا من ثلاث" فذكر: أو ولد صالح يدعو له) ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية.

فائدة : ٥

استحباب طلب الذرية الصالحة .

فزكريا قال (ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً) وقال (واجعله رَبِّ رَضِيّاً) .

والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة ، وخرج من حدّ العداوة والفتنة إلى حدّ المسرة والنعمة.

وقد " دعا النبي ﷺ لأنس خادمه فقال : "اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته" " فدعا له بالبركة تحرزاً مما يؤدّي إليه الإكثار من الهلكة.

فائدة : ٦

ومن رحمة الله بعبده، أن يرزقه ولدا صالحا، جامعا لمكارم الأخلاق ومحامد الشيم. فرحمه ربه واستجاب دعوته .

فائدة : ٧

قوله (واجعله رب رضياً) فيه مشروعية دعاء الإنسان لنفسه ولذريته.

قال ابن كثير : ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته .

قال تعالى عن إبراهيم (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) .

وقال تعالى (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء) .

وفي الحديث قال ﷺ (ثلاث دعوات مستجابات ... ودعوة الوالد لولده) .

وكان أحد السلف يدعو لابنه : اللهم اجعله عالماً عاملاً .

قال بعض السلف : إذا أردت صلاح الأولاد :

أصلح نفسك .

قال تعالى (وكان أبوهما صالحاً) .

ادع لهم .

قال تعالى (... وأصلح لي في ذريتي) .

أقم الصلاة فيهم .

قال تعالى (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) .

فائدة : ٨

فيه شَفَقةُ زكريَّا عليه السلام ونُصحُه، وأنَّ طَلَبَه للوَلدِ ليس كطَلَبِ غَيرِه؛ قَصْدُه مجرَّدُ المصلحةِ الدُّنيويَّة، وإنَّما قَصدُه مصلحةُ الدِّينِ، والخَوفُ مِن ضَياعِه .

فائدة : ٩

أن الأنبياء لا يورثون .

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)).

[مريم : ٧-١١] .

==========

(**يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى**) في هذه الآيةِ الكريمةِ حذفٌ دَلَّ المقامُ عليه، وتقديرُه: فأجابَ الله دعاءَه فنُودِي: يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى .

كما قال تعالى (فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) .

وقال سُبحانَه (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) .

قال الشنقيطي: وقد أوضَح جلَّ وعلا في موضعٍ آخرَ هذا الَّذي أجْمَله هنا، فبَيَّن أنَّ الَّذي ناداهُ بعضُ الملائكةِ، وأنَّ النِّداءَ المذكورَ وَقَع وهو قائمٌ يصلِّي في المحرابِ :

وذلك قولُه تعالَى (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) .

وقولُه تعالَى: فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ، قال بعضُ العلماءِ: أطْلَق الملائكةَ وأرادَ جبريلَ . (أضواء البيان)

وقال الواحدي: وهذا قولُ ابنِ عباسٍ، والأكثرينَ: أنَّ المنادِيَ جبريلُ وحدَه .

وقال بعض العلماء : المنادي هو الله .

لأن ما قبل هذه الآية يدل على أن زكريا عليه السلام إنما كان يخاطب الله تعالى ويسأله وهو قوله (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنِّي) وقوله (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً) وقوله (فَهَبْ لِي) وما بعدها يدل على أنه كان يخاطب الله تعالى وهو يقول (رَبِّ أنى يَكُونُ لِي غلام) وإذا كان ما قبل هذه الآية وما بعدها خطاباً مع الله تعالى وجب أن يكون النداء من الله تعالى .

(**لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا**) قيل : لم يسم أحد قبله بهذا الاسم .

وهذا الراجح ، ونسبه ابن الجوزي ، والشوكاني إلى أكثر المفسرين .

ورجحه : ابن جرير ، والرازي ، وابن عطية ، وابن جزي ، والقرطبي ، والشوكاني ، والشنقيطي .

قال ابن جرير : وَهَذَا الْقَوْلُ أَعِنِّي قَوْلَ مَنْ قَالَ : لَمْ يَكُنْ لِيَحْيَى قَبْلَ يَحْيَى أَحَدٌ سُمِّيَ بِاسْمِهِ أَشْبَهُ بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا مَعْنَى الْكَلَامِ : لَمْ نَجْعَلْ لِلْغُلَامِ الَّذِي نَهَبُ لَكَ الَّذِي اسْمُهُ يَحْيَى مِنْ قَبْلِهِ أَحَدًا مُسَمًّى بِاسْمِهِ.

وقال الرازي : واعلم أن الوجه الأول أولى وذلك لأن حمل السمي على النظير وإن كان يفيد المدح والتعظيم ولكنه عدول عن الحقيقة من غير ضرورة وإنه لا يجوز .

وقال ابن عطية : قوله (سمياً) معناه في اللغة لم نجعل لم مشاركاً في هذا الاسم ، أي لم يتسم قبل بـ (يحيى) وهذا قول قتادة وابن عباس وابن أسلم والسدي ، وقال مجاهد وغيره (سمياً) معناه مثلاً ونظيراً وهذا كأنه من المساماة والسمو ، وفي هذا بعد لأنه لا يفضل على إبراهيم وموسى .

وقال ابن جزي : قوله (سمياً) يعني من سمى باسمه ، وقيل : مثيلاً ونظيراً ، والأول أحسن هنا .

وقال الشوكاني : قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ ، مَعْنَاهُ لَمْ نُسَمِّ أَحَدًا قَبْلَهُ يَحْيَى. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَجَمَاعَةٌ: مَعْنَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِثْلًا وَلَا نَظِيرًا، فيكون على هذا مأخوذ مِنَ الْمُسَامَاةِ أَوِ السُّمُوِّ، وَرُدَّ هَذَا بِأَنَّهُ يَقْتَضِي تَفْضِيلَهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: لَمْ تَلِدْ عَاقِرٌ مِثْلَهُ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى.

وقيل : لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِثْلًا وَلَا نَظِيرًا .

وهذا ضعيف :

قال القرطبي : وهذا فيه بعد ، لأنه لا يفضل على إبراهيم وموسى

وقال الشنقيطي : وَقَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّ مَعْنَاهُ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ سَمِيًّا ، أَيْ : نَظِيرًا فِي السُّمُوِّ وَالرِّفْعَةِ غَيْرُ صَوَابٍ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِأَفْضَلَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَنُوحٍ ، فَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ هُوَ الصَّوَابُ .

تنبيه :

قال ابن الجوزي : قوله تعالى (لم نجعل له من قبلُ سَمِيّاً) فيه ثلاثة أقوال.

أحدها : لم يُسمَّ يحيى قبله ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، وقتادة ، وابن زيد ، والأكثرون.

فإن اعترض معترض ، فقال : ما وجه المِدْحَة باسم لم يُسمَّ به أحد قبله ، ونرى كثيراً من الأسماء لم يُسبَق إليها؟ فالجواب :

أن وجه الفضيلة أن الله تعالى تولَّى تسميته ، ولم يَكِل ذلك إلى أبويه ، فسماه باسم لم يُسبَق إليه. (زاد المسير) .

وقال الشوكاني : وَفِي إِخْبَارِهِ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ لَمْ يُسَمَّ بِهَذَا الِاسْمِ قَبْلَهُ أَحَدٌ فَضِيلَةٌ لَهُ مِنْ جِهَتَيْنِ:

الْأُولَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي تَوَلَّى تَسْمِيَتَهُ بِهِ، وَلَمْ يَكِلْهَا إِلَى الْأَبَوَيْنِ. وَالْجِهَةُ .

الثَّانِيَةُ: أَنَّ تَسْمِيَتَهُ بِاسْمٍ لَمْ يُوضَعْ لِغَيْرِهِ يُفِيدُ تَشْرِيفَهُ وَتَعْظِيمَهُ .

وقال الشنقيطي : قَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ (اسْمُهُ يَحْيَى) يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي سَمَّاهُ ، وَلَمْ يَكِلْ تَسْمِيَتَهُ إِلَى أَبِيهِ ، وَفِي هَذَا مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِيَحْيَى .

تنبيه :

ذكر الله تعالى من صفات ومناقب يحيى في سورة آل عمران فقال تعالى (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) .

(أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى) أي: بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى. قال قتادة وغيره: إنما سُمِّي يحيى لأن الله تعالى أحياه بالإيمان، وأن الذي تولى اسمه هو الله تعالى.

(مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ) أي: مصدقاً بعيسى.

قال الرازي: وهو اختيار الجمهور.

قال الشنقيطي: وإنما قيل لعيسى: كلمة، لأن الله أوجده بكلمة وهي قوله (كن) فكان كما قال تعالى (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ).

قال الشنقيطي: وهذا قول جمهور العلماء في معنى (مصدقاً بكلمة الله)، وقيل: المراد بـ (كلمة) الكتاب، أي: مصدقاً بكتاب الله.

(وَسَيِّدًا) السيد، الذي يسود قومه؛ أي يفوقهم في الشرف والفضل.

(وَحَصُورًا) الصحيح في معنى (وحصوراً) أنه الذي حصر نفسه عن النساء مع القدرة على إتيانهن تبتلاً منه، وانقطاعاً لعبادة الله، وكان ذلك جائزاً في شرعه، وأما سنة النبي ﷺ فهي التزوج وعدم التبتل.

قال الرازي: ... والقول الثاني: وهو اختيار المحققين أنه الذي لا يأتي النساء لا للعجز بل للعفة والزهد، وذلك لأن الحصور هو الذي يكثر منه حصر النفس ومنعها.

وقال البغوي: واختار قوم هذا القول لوجهين:

أحدهما: لأن الكلام خرج مخرج الثناء، وهذا أقرب إلى استحقاق الثناء.

والثاني: أنه أبعد من إلحاق الآفة بالأنبياء.

وقول من قال إنه كان عاجز عن إتيان النساء لعجزه، أو لأنه عنين، فهذا ليس بصحيح.

(وَنَبِيًّا) هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى.

(مِنَ الصَّالِحِينَ) الذين صلحت عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم ونياتهم، والصلاح ضد الفساد، وقد وصف الله يحيي بالصلاح مع من وصف بذلك من الأنبياء في سورة الأنعام في قوله (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ).

(**قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا**) ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ زَكَرِيَّا لَمَّا بُشِّرَ بِيَحْيَى قَالَ (رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ قَالَهُ هُنَا ذَكَرَهُ أَيْضًا فِي «آلِ عِمْرَانَ» فِي قَوْلِهِ (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ) .

عتياً : أي بلغ غاية الكبر في السن حتى نحل عظمه ويبس .

اختلف العلماء في وجه استفهام زكريا على أقوال :

قيل : أَنَّ اسْتِفْهَامَ زَكَرِيَّا اسْتِفْهَامُ اسْتِخْبَارٍ وَاسْتِعْلَامٍ ; لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ هَلِ اللَّهُ يَأْتِيهِ بِالْوَلَدِ مِنْ زَوْجَةِ الْعَجُوزِ عَلَى كِبَرِ سِنِّهِمَا عَلَى سَبِيلِ خَرْقِ الْعَادَةِ ، أَوْ يَأْمُرُهُ بِأَنْ يَتَزَوَّجَ شَابَّةً ، أَوْ يَرُدُّهُمَا شَابَّيْنِ ؟ فَاسْتَفْهَمَ عَنِ الْحَقِيقَةِ لِيَعْلَمَهَا ، وَلَا إِشْكَالَ فِي هَذَا ، وَهُوَ أَظْهَرُهَا .

ورجحه : ابن جرير ، والزجاج ، والماوردي ، والشنقيطي .

قال ابن جرير : قَالَ زَكَرِيَّا لَمَّا بَشَّرَهُ اللَّهُ بِيَحْيَى (رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ) وَمِنْ أَيِّ وَجْهٍ يَكُونُ لِي ذَلِكَ، وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ لاَ تَحْبَلُ، وَقَدْ ضَعُفْتُ مِنَ الْكِبَرِ عَنْ مُبَاضَعَةِ النِّسَاءِ أَبِأَنْ تُقَوِّيَنِي عَلَى مَا ضَعُفْتُ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ، وَتَجْعَلَ زَوْجَتِي وَلُودًا فَإِنَّكَ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ وَعَلَى مَا تَشَاءُ؟ أَمْ بِأَنْ أَنْكِحَ زَوْجَةً غَيْرَ زَوْجَتِي الْعَاقِرِ؟ يَسْتَثْبِتُ رَبَّهُ الْخَبَرَ، عَنِ الْوَجْهِ الَّذِي يَكُونُ مِنْ قِبَلِهِ لَهُ الْوَلَدُ، الَّذِي بَشَّرَهُ اللَّهُ بِهِ، لاَ إِنْكَارًا مِنْهُ ﷺ حَقِيقَةَ كَوْنِ مَا وَعَدَهُ اللَّهُ مِنَ الْوَلَدِ، وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْهُ إِنْكَارًا لِأَنْ يَرْزُقَهُ الْوَلَدُ الَّذِي بَشَّرَهُ بِهِ، وَهُوَ الْمُبْتَدِئُ مَسْأَلَةَ رَبِّهِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) بَعْدَ قَوْلِهِ (إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا).

وقيل : أَنَّ اسْتِفْهَامَهُ اسْتِفْهَامُ تَعَجُّبٍ مِنْ كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

ورجحه : الرازي ، والقرطبي ، والشوكاني .

قال القرطبي : قوله تعالى (قَالَ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي غُلَامٌ) ليس على معنى الإنكار لما أخبر الله تعالى به ، بل على سبيل التعجب من قدرة الله تعالى أن يخرج ولداً من امرأة عاقر وشيخ كبير.

وقال الشوكاني : كيف أو من أين يكون لِي غُلَامٌ؟ وَلَيْسَ مَعْنَى هَذَا الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارَ، بَلِ التَّعَجُّبَ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ وَبَدِيعِ صُنْعِهِ، حَيْثُ يُخْرِجُ وَلَدًا مِنِ امْرَأَةٍ عَاقِرٍ وَشَيْخٍ كَبِيرٍ .

تنبيه :

قال ابن كثير : ... وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ لَا يُوْلَدُ لَهُ، وَكَذَلِكَ امْرَأَتُهُ كَانَتْ عَاقِرًا مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهَا، بِخِلَافِ إِبْرَاهِيمَ، وَسَارَةَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَإِنَّهُمَا إِنَّمَا تَعَجَّبَا مِنَ الْبِشَارَةِ بِإِسْحَاقَ لكبرهما لَا لِعُقْرِهِمَا، وَلِهَذَا قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ [الْحِجْرِ: ٥٤] مَعَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ وُلِدَ لَهُ قَبْلَهُ إِسْمَاعِيلُ بِثَلَاثَ عشرة سنة، وقالت امرأته يَا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

(**قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**) أي : قال الله تعالى مجيباً على استفهام زكريا، الأمر كما ذكرت يا زكريا من كون امرأتك عاقرا، وأنت قد بلغت من الكبر عتيا، ولكن ذلك لا يحول بيننا وبين تنفيذ إرادتنا في منحك هذا الغلام، فإن قدرتنا لا يعجزها شيء، ولا تخضع لما جرت به العادات ... وهذا الأمر وهو إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ أي : يسير سهل .

فالإشارة في قوله (كَذَلِكَ ..) إلى ما سَبَق مِنْ قولِ زكريَّا .

ورجحه : ابنُ جرير، والسمرقندي، والزمخشري، وابن عطية .

قال الطبري : قالَ اللَّهُ لِزَكَرِيَّا مُجِيبًا لَهُ (قَالَ كَذَلِكَ) يَقُولُ : هَكَذَا الأَمْرُ كَمَا تَقُولُ مِنْ أَنَّ امْرَأَتَكَ عَاقِرٌ ، وَإِنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ الْعِتِيَّ ، وَلَكِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ : خَلْقُ مَا بَشَّرْتُكَ بِهِ مِنَ الْغُلاَمِ الَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّ اسْمَهُ يَحْيَى عَلَيَّ هَيِّنٌ .

(**وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا**) أَيْ : وَمَنْ خَلَقَكَ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُرْزُقَكَ الْوَلَدَ الْمَذْكُورَ كَمَا لَا يَخْفَى ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ هُنَا لِزَكَرِيَّا : مِنْ أَنَّهُ خَلَقَهُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا أَشَارَ إِلَيْهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ :

كَقَوْلِهِ (أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) .

(**قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ آيَةً**) أي: قال زكريَّا: يا رَبِّ، اجعَلْ لي علامةً أستَدِلُّ بها على حَملِ زوجتي؛ ليطمَئِنَّ قلبي .

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : طَلَبَ الْآيَةَ عَلَى ذَلِكَ لِتَتِمَّ طُمَأْنِينَتُهُ بِوُقُوعِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، وَنَظِيرُهُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ : (قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) .

وَقِيلَ : أَرَادَ بِالْعَلَّامَةِ أَنْ يَعْرِفَ ابْتِدَاءَ حَمْلِ امْرَأَتِهِ ; لِأَنَّ الْحَمْلَ فِي أَوَّلِ زَمَنِهِ يَخْفَى .

وذهب بعض العلماء : أنه طلب آية لتعريف وقت العلوق .

واختاره الآلوسي .

قال الآلوسي : قوله تعالى (قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً) أي : علامة تدلني على تحقق المسئول ووقوع الخبر، وكان هذا السؤال كما قال الزجاج لتعريف وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه وهو أمر خفي لا يوقف عليه لا سيما إذا كانت زوجته ممن انقطع حيضها لكبرها وأراد أن يطلعه الله تعالى ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حدوثها ولا يؤخره إلى أن تظهر ظهوراً معتاداً، وقيل: طلب ذلك ليزداد يقينا وطمأنينة كما طلب إبراهيم عليه السلام كيفية إحياء الموتى لذلك والأول أولى، وبالجملة لم يطلبه لتوقف منه في صدق الوعد ولا لتوهم أن ذلك من عند غير الله تعالى .

وقال الشوكاني : قوله تعالى (قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً) أَيْ : عَلَامَةً تدلني على وقوع المسؤول وَتَحَقُّقِهِ وَحُصُولِ الْحَبَلِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا السُّؤَالِ تَعْرِيفُهُ وَقْتَ الْعُلُوقِ حَيْثُ كَانَتِ الْبِشَارَةُ مُطْلَقَةً عَنْ تَعْيِينِهِ.

قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: وَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ نَفْسَهُ تَاقَتْ إِلَى سُرْعَةِ الْأَمْرِ، فَسَأَلَ اللَّهَ آيَةً يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى قُرْبِ مَا منّ به عليه .

وقيل: طلب آية تدله عَلَى أَنَّ الْبُشْرَى مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَا مِنَ الشَّيْطَانِ لِأَنَّ إِبْلِيسَ أَوْهَمَهُ بِذَلِكَ، كَذَا قال الضحاك والسدّي، وهو بعيد جدّا . (فتح القدير)

(**قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا**) أي: قال اللهُ لزكريَّا: العَلامةُ التي جعَلْناها لك دليلًا على حَملِ زَوجتِك: ألَّا تَقدِرَ على الكَلامِ مع النَّاسِ ثَلاثَ ليالٍ، وأنت صحيحٌ ليس بك مَرَضٌ يمنَعُك مِن الكلامِ !

كما قال تعالى (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) .

سوياً : أي : وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة .

قال الشوكاني : وَقَدْ دَلَّ بِذِكْرِ اللَّيَالِي هُنَا وَالْأَيَّامِ فِي آلِ عِمْرَانَ أَنَّ الْمُرَادَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهِنَّ .

قال السعدي: هذا مِن الآياتِ العَجيبةِ؛ فإنَّ مَنْعَه من الكلامِ مُدَّةَ ثلاثةِ أيَّامٍ، وعجزَه عنه –مِن غيرِ خَرسٍ ولا آفةٍ، بل كان سَوِيًّا لا نقصَ فيه– مِنَ الأدلَّةِ على قُدرةِ اللهِ الخارقةِ للعوائِدِ! وهو مع هذا ممنوعٌ مِن الكلامِ الذي يتعلَّقُ بالآدميِّينَ وخطابِهم، وأمَّا التَّسبيحُ والتَّهليلُ والذِّكرُ ونحوُه فغيرُ ممنوعٍ منه! .

(**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ**) الذي بشر به بالولد .

(**فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ**) إشارة .

كما قال تعالى في سورة آل عمران (... قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إلا رمزاً) .

ورجح هذا القول : السمرقندي ، والواحدي ، والسمعاني ، والرازي ، والسعدي .

وقيل : كتب كتابة .

لأنه قد يطلق الوحي على الكتابة .

وقدمه ابن الجوزي .

وقال بعض العلماء بالوجهين ، يحتمل إشارة ويحتمل كتابة .

قال ابن عطية : وكلا الوجهين وحي .

(**أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**) الْبُكْرَةُ أَوَّلُ النَّهَارِ ، وَالْعَشِيُّ آخِرُهُ .

وَقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى فِي «آلِ عِمْرَانَ» أَنَّ هَذَا الَّذِي أَمَرَ بِهِ زَكَرِيَّا قَوْمَهُ بِالْإِشَارَةِ أَوِ الْكِتَابَةِ مِنَ التَّسْبِيحِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ زَكَرِيَّا بِهِ أَيْضًا ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) .

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْمِحْرَابَ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ عَلَى قَوْمِهِ هُوَ الْمِحْرَابُ الَّذِي بُشِّرَ بِالْوَلَدِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِيهِ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ) .

قال ابنُ جرير: وقد يجوزُ في هذا الموضِعِ أن يكونَ عنى به التسبيحَ الذي هو ذِكرُ الله، فيكونَ أمَرَهم بالفراغِ لذِكرِ الله في طَرَفَي النَّهارِ بالتَّسبيح، ويجوزُ أن يكونَ عنى به الصَّلاةَ، فيكونَ أمَرَهم بالصَّلاةِ في هذين الوقتَينِ .

قال السَّعدي: أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا لأنَّ البِشارةَ بـ «يحيى» في حقِّ الجميعِ مَصلحةٌ دينيَّةٌ .

وهذا الوقتان قد أمر الله بذكره فيهما:

فقال تعالى (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا).

وقال تعالى (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ).

وقال تعالى (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ).

وتسبيح الله يكون عن أمور ثلاثة:

عن صفة العيب، وعن نقص في كمال، وعن مماثلة المخلوقين.

فالنقص كقوله تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ).

وعن نقص في كمال مثل قوله تعالى (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا).

ومماثلة المخلوقين مثل قوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).

فائدة : ١

استحباب تبشير المسلم بما يسره، لأن البشارة مما تسر المسلم وتفرحه .

قال تعالى (وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ).

وقال تعالى (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ).

وقال تعالى (فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ).

وقال تعالى (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ).

وقال تعالى (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً).

ولأن البشارة تسر العبد وتفرحه، فاستُحب للمسلم أن يبادر إلى مسرة أخيه وإعلامه بما يفرحه.

وقال معاذ للرسول ﷺ : أفلا أبشر الناس .

ولما ولد النبي ﷺ بشرت به ثُوَيْبة عمه أبا لهب – وكان مولاها – فأعتقها أبو لهب سروراً به.

ولما نزلت توبة كعب بن مالك وصاحبيه، ذهب إليه البشير فبشره، فلما دخل المسجد جاء الناس فهنؤوه.

فائدة : ٢

منقبة عظيمة ليحيى حيث تولى الله تسميته .

فائدة : ٣

قال الرازي: ثم اعلم أن تلك الواقعة كانت مشتملة على المعجز من وجوه:

أحدها: أن قدرته على التكلم بالتسبيح والذكر، وعجزه عن التكلم بأمور الدنيا من أعظم المعجزات.

وثانيها: أن حصول ذلك المعجز في تلك الأيام المقدورة مع سلامة البنية واعتدال المزاج من جملة المعجزات.

وثالثها: أن إخباره بأنه متى حصلت هذه الحالة فقد حصل الولد، ثم إن الأمر خرج على وفق هذا الخبر يكون أيضاً من المعجزات.

فائدة : ٤

قال السعدي: وفيه مناسبة عجيبة، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجدها بدون أسبابها ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره.

فائدة : ٥

جواز تسمية المولود قبل أن يولد .

فائدة : ٦

لا شيء يعجز الله .

فائدة : ٧

أن الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

فائدة : ٨

أن النعم تحتاج إلى مزيد من الشكر .

فزكريا لما بُشرَ بيحيى أمِرَ أن يقدم لذلك شكراً (وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ) .

فامتثل ذلك عليه السلام وأمر قومه بذلك (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) .

وقد قال تعالى لنبيه ﷺ (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) .

وقال (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) .

فائدة : ٩

أنه لا حرج على الإنسان أن يطلب ما تطمئن به نفسه.

فائدة : ١٠

جواز البحث عما يزيد الإيمان.

فائدة : ١١

تمام قدرة الله.

فائدة : ١٢

فضل تسبيح الله .

فائدة : ١٣

فضل ذكر الله في هذين الوقتين.

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)) .

[مريم : ١٢-١٥] .

==========

(**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ**) أي: فوُلِد لزَكريَّا يحيى، وقال اللهُ له: يا يحيى، خُذِ التَّوراةَ بجِدٍّ واجتهادٍ وعَزمٍ؛ فَهمًا لمعانيها، وعَمَلًا بما فيها، وحَملًا للنَّاسِ على اتِّباعِها .

قال ابن كثير : أي بجد وحرص واجتهاد .

والمراد بالكتاب التوراة .

قال ابن عطية : و(الكتاب) التوراة بلا اختلاف لأنه ولد قبل عيسى ولم يكن الإنجيل موجوداً عند الناس.

وقال القرطبي : و"الكتاب" التوراة بلا خلاف.

(**وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**) أي : وأعطينا يحيى الحكم صبياً : أي الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير وهو صغير حدث .

وقيل : أعطي النبوة من الصغر ، والأول أصح .

قال الطبري : المعنى أعطيناه الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه سن الرجال .

وقوله (صبياً) أي : لم يبلغ .

قال معمر بن راشد: بلغني أن الصبيان قالوا ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، قال: ما للعب خلقت! اللعب ليس محرمًا على الإطلاق؛ لكنَّ من نعم الله على العبد أن يدرك علة خلقه مبكِّرًا.

(**وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا**) معْطُوفٌ عَلَى (الْحُكْمَ) أَيْ: وَآتَيْنَاهُ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا، وَالْحَنَانُ: هُوَ مَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَالْعَطْفِ وَالشَّفَقَةِ.

قال السعدي : وآتيناه أيضا (حَنَانًا مِنْ لَدُنَّ) أي: رحمة ورأفة، تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله.

جاء في (التفسير الوسيط) والمعنى: منحنا يَحْيى الحكم صبيا، ومنحناه من عندنا وحدنا رحمة عظيمة عليه، ورحمة في قلبه جعلته يعطف على غيره .

(**وَزَكَاةً**) مَعْطُوفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، أَيْ : أَوْ أَعْطَيْنَاهُ زَكَاةً ، أَيْ : طَهَارَةً مِنْ أَدْرَانِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي بِالطَّاعَةِ ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ بِمَا يُرْضِيهِ .

قال السعدي : (وَزَكَاةً) أي: طهارة من الآفات والذنوب، فطهر قلبه وتزكى عقله، وذلك يتضمن زوال الأوصاف المذمومة، والأخلاق الرديئة، وزيادة الأخلاق الحسنة، والأوصاف المحمودة .

(**وَكَانَ تَقِيًّا**) أَيْ : مُمْتَثِلًا لِأَوَامِرِ رَبِّهِ مُجْتَنِبًا كُلَّ مَا نَهَى عَنْهُ .

(**وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ**) أَيْ : وَجَعَلْنَاهُ كَثِيرَ الْبِرِّ بِوَالِدَيْهِ ، أَيْ : مُحْسِنًا إِلَيْهِمَا ، لَطِيفًا بِهِمَا ، لَيِّنَ الْجَانِبِ لَهُمَا .

(**وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا**) أَيْ : لَمْ يَكُنْ مُسْتَكْبِرًا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ وَطَاعَةِ وَالِدَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُطِيعًا لِلَّهِ ، مُتَوَاضِعًا لِوَالِدَيْهِ ، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَالْجَبَّارُ : هُوَ كَثِيرُ الْجَبْرِ ، أَيِ : الْقَهْرِ لِلنَّاسِ ، وَالظُّلْمِ لَهُمْ ، وَكُلُّ مُتَكَبِّرٍ عَلَى النَّاسِ يَظْلِمُهُمْ : فَهُوَ جَبَّارٌ .

(**عصياً**) أي : ولم يكن ذا معصية ومخالفة لأمر ربه.

(**وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا**) أي : له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال .

وَإِنَّمَا خَصَّ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةَ بِالسَّلَامِ الَّتِي هِيَ وَقْتُ وِلَادَتِهِ ، وَوَقْتُ مَوْتِهِ ، وَوَقْتُ بَعْثِهِ ، فِي قَوْلِهِ : يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ الْآيَةَ ; لِأَنَّهَا أَوْحَشُ مِنْ غَيْرِهَا .

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : أَوْحَشُ مَا يَكُونُ الْمَرْءُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ : يَوْمَ يُولَدُ فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجًا مِمَّا كَانَ فِيهِ وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيَرَى قَوْمًا لَمْ يَكُنْ عَايَنَهُمْ ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ فَيَرَى نَفْسَهُ فِي مَحْشَرٍ عَظِيمٍ ، قَالَ : فَأَكْرَمَ اللَّهُ فِيهَا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا فَخَصَّهُ بِالسَّلَامِ عَلَيْهِ فِيهَا .

قال ابن عطية : حياه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف ، والحاجة ، والافتقار إلى الله .

الفوائد :

١. إثبات نبوة يحيى .

٢. فضيلة نبي الله يحيى حيث خاطبه الله تعالى وكلمه .

٣. الجد والقوة والنشاط بتعلم العلم .

٤. التحذير من الكسل والخمول في أخذ الكتاب والسنة .

٥. الدين يسر وسماحة ، لكم جد واهتمام .

٦. النشاط والعزيمة دليل الإخلاص .

٧. فورة الشباب ، وحكمة الشيوخ ، إن اجتمعت بشخص واحد فاعلم أن الله يريد أن يصطفيه لنفسه ويصنعه على عينه .

٨. نعمة من نعم الله على يحيى أعطاه الفهم والعمل وهو صغير .

٩. التقوى فضيلة حتى في الصبيان .

١٠. حين يعطيك الله الحنان فقد أراد بك الخير .

١١. تزكيته تعالى ليحيى وتوفيقه للإيمان والعمل الصالح ، وترك الذنوب والمعاصي .

١٢. فضل تقوى الله .

١٣. فضل بر الوالدين .

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)) .

[مريم : ١٢-١٥] .

==========

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ) أي: فوُلِد لزكريَّا يحيى، وقال اللهُ له: يا يحيى، خُذِ التَّوراةَ بجِدٍّ واجتهادٍ وعَزمٍ؛ فَهمًا لمعانيها، وعَمَلًا بما فيها، وحَملًا للنَّاسِ على اتِّباعِها .

قال ابن كثير : أي بجد وحرص واجتهاد .

والمراد بالكتاب التوراة .

قال ابن عطية : و(الكتاب) التوراة بلا اختلاف لأنه ولد قبل عيسى ولم يكن الإنجيل موجوداً عند الناس.

وقال القرطبي : و"الكتاب" التوراة بلا خلاف.

(وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) أي : وأعطينا يحيى الحكم صبياً : أي الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير وهو صغير حدث .

وقيل : أعطي النبوة من الصغر ، والأول أصح .

قال الطبري : المعنى أعطيناه الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه سن الرجال .

وقوله (صبياً) أي : لم يبلغ .

قال معمر بن راشد: بلغني أن الصبيان قالوا ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، قال: ما للعب خلقت!

اللعب ليس محرمًا على الإطلاق؛ لكنَّ من نعم الله على العبد أن يدرك علة خلقه مبكِّرًا.

(وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا) مَعْطُوفٌ عَلَى (الْحُكْمَ) أَيْ : وَآتَيْنَاهُ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا ، وَالْحَنَانُ : هُوَ مَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَالْعَطْفِ وَالشَّفَقَةِ .

قال السعدي : وآتيناه أيضا (حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا) أي: رحمة ورأفة، تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله.

جاء في (**التفسير الوسيط**) والمعنى: منحنا يَحْيى الحكم صبيا، ومنحناه من عندنا وحدنا رحمة عظيمة عليه، ورحمة في قلبه جعلته يعطف على غيره .

(وَزَكَاةً) مَعْطُوفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، أَيْ : أَوْ أَعْطَيْنَاهُ زَكَاةً ، أَيْ : طَهَارَةً مِنْ أَدْرَانِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي بِالطَّاعَةِ ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ بِمَا يُرْضِيهِ .

قال السعدي : (وَزَكَاةً) أي: طهارة من الآفات والذنوب، فطهر قلبه وتزكى عقله، وذلك يتضمن زوال الأوصاف المذمومة، والأخلاق الرديئة، وزيادة الأخلاق الحسنة، والأوصاف المحمودة .

(وَكَانَ تَقِيًّا) أَيْ : مُمْتَثِلًا لِأَوَامِرِ رَبِّهِ مُجْتَنِبًا كُلَّ مَا نَهَى عَنْهُ .

(وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ) أَيْ : وَجَعَلْنَاهُ كَثِيرَ الْبِرِّ بِوَالِدَيْهِ ، أَيْ : مُحْسِنًا إِلَيْهِمَا ، لَطِيفًا بِهِمَا ، لَيِّنَ الْجَانِبِ لَهُمَا .

(وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا) أَيْ : لَمْ يَكُنْ مُسْتَكْبِرًا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ وَطَاعَةِ وَالِدَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُطِيعًا لِلَّهِ ، مُتَوَاضِعًا لِوَالِدَيْهِ ، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَالْجَبَّارُ : هُوَ كَثِيرُ الْجَبْرِ ، أَيِ : الْقَهْرِ لِلنَّاسِ ، وَالظُّلْمِ لَهُمْ ، وَكُلُّ مُتَكَبِّرٍ عَلَى النَّاسِ يَظْلِمُهُمْ : فَهُوَ جَبَّارٌ .

(عصياً) أي : ولم يكن ذا معصية ومخالفة لأمر ربه.

(**وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا**) أي : له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال .

وَإِنَّمَا خَصَّ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةَ بِالسَّلَامِ الَّتِي هِيَ وَقْتُ وِلَادَتِهِ ، وَوَقْتُ مَوْتِهِ ، وَوَقْتُ بَعْثِهِ ، فِي قَوْلِهِ : يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ الْآيَةَ ; لِأَنَّهَا أَوْحَشُ مِنْ غَيْرِهَا .

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : أَوْحَشُ مَا يَكُونُ الْمَرْءُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ : يَوْمَ يُولَدُ فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجًا مِمَّا كَانَ فِيهِ وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيَرَى قَوْمًا لَمْ يَكُنْ عَايَنَهُمْ ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ فَيَرَى نَفْسَهُ فِي مَحْشَرٍ عَظِيمٍ ، قَالَ : فَأَكْرَمَ اللَّهُ فِيهَا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا فَخَصَّهُ بِالسَّلَامِ عَلَيْهِ فِيهَا .

قال ابن عطية : حياه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف ، والحاجة ، والافتقار إلى الله .

الفوائد :

١. إثبات نبوة يحيى .
٢. فضيلة نبي الله يحيى حيث خاطبه الله تعالى وكلمه .
٣. الجد والقوة والنشاط بتعلم العلم .
٤. التحذير من الكسل والخمول في أخذ الكتاب والسنة .
٥. الدين يسر وسماحة ، لكم جد واهتمام .
٦. النشاط والعزيمة دليل الإخلاص .
٧. فورة الشباب ، وحكمة الشيوخ ، إن اجتمعت بشخص واحد فاعلم أن الله يريد أن يصطفيه لنفسه ويصنعه على عينه .
٨. نعمة من نعم الله على يحيى أعطاه الفهم والعمل وهو صغير .
٩. التقوى فضيلة حتى في الصبيان .
١٠. حين يعطيك الله الحنان فقد أراد بك الخير .
١١. تزكيته تعالى ليحيى وتوفيقه للإيمان والعمل الصالح ، وترك الذنوب والمعاصي .
١٢. فضل تقوى الله .
١٣. فضل بر الوالدين .

(**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّيَ أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١)**) .

[مريم : ١٦-٢١] .

==========

(**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ**) أي : واتْلُ -يا مُحَمَّدُ- في القُرآنِ خبَرَ مَريمَ عليها السَّلامُ .

(**إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا**) أي : حين تنحَّتْ واعتزلت أهلها في مكان شرقيَّ بيت المقدس لتتفرغ لعبادة الله .

قيل في سببِ انفرادِها عنهم: إنَّها اتخذَتْ مكانًا تنفردُ فيه للعبادةِ.

قال ابنُ عطية: وذلك أنَّ مريمَ كانت وقفًا على سدانةِ المتعبَّدِ وخدمتِه والعبادةِ فيه، فتنحَّتْ مِن الناسِ لذلك .

وقيل: إنَّها اتخَذتْ مكانًا تعتزلُ فيه أيامَ حيضِها. وقيل غيرُ ذلك.

وقال ابن كثير: ذهبَت إلى شرقِ المسجدِ المقدسِ ، وقيل: جهةَ الشرقِ مِن مساكنِ أهلِها.

وقيل في سببِ كونِ هذا المكانِ في الشرقِ: لأنَّهم كانوا يُعَظِّمونَ جهةَ الشَّرقِ؛ لأنَّها مطلعُ الأنوارِ .

وقال القرطبي : اختلف الناس لم انتبذت :

فقال السدي : انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس.

وقال غيره : لتعبد الله ؛ وهذا حسن.

وذلك أن مريم عليها السلام كانت وقفاً على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه ، فتنحت من الناس لذلك ، ودخلت في المسجد إلى جانب المحراب في شرقيه لتخلو للعبادة ، فدخل عليها جبريل عليه السلام.

(**فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا**) أي : جعلت بينها وبين قومها سترا وحاجزاً

(**فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا**) أي : أرسلنا إليها جبريل عليه السلام .

لما جلست في ذلك المكان أرسل الله إليها الروح واختلف المفسرون في هذا الروح :

فقال الأكثرون : إنه جبريل عليه السلام .

لأن جبريل عليه السلام يسمى روحاً قال الله تعالى (نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ) .

وقال ابن الجوزي : قوله تعالى (فأرسلنا إليها روحنا) وهو جبريل في قول الجمهور.

وقال ابن جزي : (فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا) يعني جبريل، وقيل: عيسى، والأول هو الصحيح؛ لأن جبريل هو الذي تمثل لها باتفاق.

وقوله (روحنا) سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ الدِّينَ يحيا به وبوحيِه . وقيل: إنَّما سُمِّي جبريلُ رُوحًا؛ لأنَّه بمنزلةِ الأرواحِ للأبدانِ تحيا بما يأتي مِن البيانِ عن الله عزَّ وجلَّ مَن يُهدَى به .

(**فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**) أي : فجاءَها على هيئةِ رَجُلٍ مُعتَدِلِ الخِلْقةِ، جَميلِ الصُّورةِ .

قال أبو السعود: (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا...) لتستأنِسَ بكلامِه وتتلقَّى منه ما يُلقي إليها من كلماتِه تعالى؛ إذ لو بدا لها على الصورةِ الملَكيَّة، لنَفِرَت منه، ولم تستَطِعْ مُفاوضتَه .

وقال البقاعي : (بشراً سوياً) في خلقه حسن الشكل لئلا تشتد نفرتها وروعها منه .

(**قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ**) أي: قالت مَريمُ وهي خائِفةٌ: إني ألتَجئُ وأعتَصِمُ بالرَّحمنِ منك -أيُّها الرَّجُلُ- أن تنالَني بسُوءٍ .

(**إِن كُنتَ تَقِيًّا**) أي: إنْ كُنتَ ذا تقوى تجتَنِبُ ما حرَّم اللهُ، ولا تُقدِمُ على الفُجورِ، فستنتهي بتعوُّذي منك .

قال ابن كثير : (قالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) أَيْ لَمَّا تَبَدَّى لَهَا الْمَلَكُ فِي صُورَةِ بَشَرٍ وَهِيَ فِي مَكَانٍ مُنْفَرِدٍ وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ قَوْمِهَا حِجَابٌ، خَافَتْهُ وَظَنَّتْ أَنَّهُ يُرِيدُهَا عَلَى نَفْسِهَا، فَقَالَتْ (إِنِّيٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) أَيْ إِنْ كُنْتَ تخاف الله تذكيراً لَهُ بِاللَّهِ وَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ فِي الدَّفْعِ أَنْ يَكُونَ بِالْأَسْهَلِ، فَالْأَسْهَلِ، فَخَوَّفَتْهُ أَوَّلًا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وقال الرازي : أرادت أن كان يرجى منك أن تتقي الله ويحصل ذلك بالاستعاذة به فإني عائذة به منك وهذا في نهاية الحسن لأنها علمت أنه لا تؤثر الاستعاذة إلا في التقي وهو كقوله (وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الربا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ) أي أن شرط الإيمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يخشى في حال دون حال.

وقال ابن الجوزي : المعنى : إن كنتَ تتَّقي الله ، فستنتهي بتعوُّذي منك ، هذا هو القول عند المحققين ... وحكي عن ابن عباس أنه كان في زمانها رجل اسمه تقي ، وكان فاجراً ، فظنته إياه ، ذكره ابن الأنباري ، والماوردي.

وقال السعدي : (إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) أي إن كنت تخاف الله وتعمل بتقواه فاترك التعرض لي فجمعت بين الاعتصام بربها وبين تخويفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوى وهي في تلك الحالة الخالية والشباب والبعد عن الناس وهو في ذلك الجمال الباهر والبشرية الكاملة السوية ولم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها وإنما ذلك خوف منها وهذا أبلغ ما يكون من العفة والبعد عن الشر وأسبابه

وهذه العفة – خصوصاً مع اجتماع الدواعي وعدم المانع – من أفضل الأعمال

ولذلك أثنى الله عليها فقال (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا) (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) فأعاضها الله بعفتها ولداً من آيات الله ورسولاً من رسله . (السعدي) .

تنبيه :

قال بعضهم : (إن كنت تقيا) كان في زمانهم رجل اسمه تقي ، وكان فاجراً ، وهذا قول ضعيف .

قال ابن جزي : وقيل إن تقيا اسم رجل معروف بالشرّ عندهم وهذا ضعيف وبعيد .

وقال أبو حيان : قيل : وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه ، ودل على عفافها وورعها أنها تعوذت به من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاءً لها وسبراً لعفتها.

وقال الخازن : دل تعوذها من تلك الصورة الحسنة على عفتها وورعها. فإن قلت إنما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت إن كنت تقيا. قلت هذا كقول القائل إن كنت مؤمنا فلا تظلمني أي ينبغي أن يكون إيمانك مانعا من الظلم ، كذلك ها هنا معناه ينبغي أن تكون تقواك مانعة لك من الفجور .

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ) أيْ : فقال لها الملك مجيبا لها ومزيلا لما حَصَلَ عِنْدَهَا مِنَ الْخَوْفِ عَلَى نَفْسِهَا لَسْتُ مِمَّا تَظُنِّينَ وَلَكِنِّي رَسُولُ رَبِّكِ أَيْ بَعَثَنِي الله إِلَيْكِ، وَيُقَالُ إِنَّهَا لَمَّا ذَكَرَتِ الرَّحْمَنَ انْتَفَضَ جِبْرِيلُ فَرَقًا وَعَادَ إِلَى هَيْئَتِهِ .

(**لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا**) أي: قال جِبريلُ لِمَريمَ: أرسَلَني اللهُ إليكِ؛ لأكونَ سَبَبًا في هبةِ غلامٍ لك طاهِرٍ من الذُّنوبِ والخِصالِ الذَّميمةِ .

وبين تعالى في غير هذا الموضع كثيراً من صفات هذا الغلام الموهوب لها وهو عيسى .

كما قال تعالى (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ) .

قال الشنقيطي : (لأهبَ لك) أَيْ : لِأَهَبَ لَكِ أَنَا أَيُّهَا الرَّسُولُ مِنْ رَبِّكِ غُلَامًا زَكِيًّا ، وَفِي مَعْنَى إِسْنَادِهِ الْهِبَةَ إِلَى نَفْسِهِ عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ خِلَافٌ مَعْرُوفٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، وَأَظْهَرُ الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي : أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِ جِبْرِيلَ لَهَا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ، أَيْ : لِأَكُونَ سَبَبًا فِي هِبَةِ الْغُلَامِ بِالنَّفْخِ فِي الدِّرْعِ الَّذِي وَصَلَ إِلَى الْفَرْجِ ، فَصَارَ بِسَبَبِهِ حَمْلُهَا عِيسَى ، وَبَيَّنَ تَعَالَى فِي سُورَةِ «التَّحْرِيمِ» أَنَّ هَذَا النَّفْخَ فِي فَرْجِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا) وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ (فِيهِ) رَاجِعٌ إِلَى فَرْجِهَا وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي «الْأَنْبِيَاءِ» (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا) لِأَنَّ النَّفْخَ وَصَلَ إِلَى الْفَرْجِ فَكَانَ مِنْهُ حَمْلُ عِيسَى ، وَبِهَذَا فَسَّرَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ الْآيَةَ . (أضواء)

(**قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**) أي: قالت مَريمُ: كيف يكونُ لي غُلامٌ أَلِدُه، ولم يَقرَبْني أحدٌ بنِكاحٍ ؟!

كما قال تعالى (قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) .

(**وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا**) أي: ولم يكُنْ مِن دَأبي الفُجورُ والوقوعُ في الفاحِشةِ، فكيف يكونُ لي ولَدٌ .

قال ابن الجوزي : معنى الآية : ليس لي زوج ، ولستُ بزانية ، وإنما يكون الولد من هاتين الجهتين.

(**قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**) أَيْ : وَسَتَلِدِينَ ذَلِكَ الْغُلَامَ الْمُبَشَّرَ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمَسَّكِ بَشَرٌ ، وَقَدْ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ «آلِ عِمْرَانَ» فِي قَوْلِهِ (قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

(**وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ**) أي : ولنجعل وجود الغلام منك من غير أن يمسك بشر آيَةً عظيمة ، وأمرا عجيبا يدل دلالة واضحة على قدرتنا ، أمام الناس جميعا، فإن قدرتنا لا يعجزها ذلك، كما لا يعجزها أن توجد بشراً من غير أب وأم كما فعلنا مع آدم. أو من غير أم كما فعلنا مع حواء، أو من أب وأم كما فعلنا مع سائر البشر.

قال البقاعي : أي : علامة على كمال قدرتنا على البعث أدل من الآية في يحيى عليه السلام، وبه تمام القسمة الرباعية في خلق البشر، فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، وحواء من ذكر بلا أنثى وآدم عليه السلام لا من ذكر ولا أنثى، وبقية أولاده من ذكر وأنثى معاً .

وقال السعدي : (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ) تدل على كمال قدرة الله تعالى وعلى أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير وإنما تأثيرها بتقدير الله فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية لئلا يقفوا مع الأسباب ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها .

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في سورة الأنبياء فقال تعالى (وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) وَفِي «الْفَلَاحِ» بِقَوْلِهِ (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا) .

(**وَرَحْمَةً مِنَّا**) أي : لمن آمن به واتبعه .

(**وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا**) أي : محكوماً مفروغاً منه لا يرد ولا يبدل .

الفوائد :

١. أمر النبي ﷺ بذكر قصة مريم لما فيها من العبر والعظات .

٢. تمام قدرة الله العظيمة .

٣. التنويه بذكر مريم وابنها .

٤. إرسال جبريل عليه السلام إلى مريم على صورة بشر لتتحمل رؤيته .

٥. عدم قدرة البشر على رؤية الملائكة .

٦. مشروعية رد الصائل بتذكيره أولاً بالله وتخويفه به .

٧. الالتجاء إلى الله دائماً وأبداً .

٨. أن المتقي حقاً تنفع معه النصيحة والتذكير .

٩. عفة مريم العظيمة ، ولذلك أثنى الله عليها .

١٠. أن كل شيء على الله هين .

١١. خلق عيسى من أم بلا أب آية عظيمة على قدرة الله .

١٢. وجود عيسى رحمة لمن آمن به واتبعه .

١٣. كفر من قال إن عيسى ابن الله .

١٤. كفر من قال إن عيسى إله .

١٥. أن عيسى مخلوق كغيره .

(فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)) .

[مريم : ٢٢-٢٦] .

==========

(**فَحَمَلَتْهُ**) أي: فحَمَلَت مريمُ بعيسى عليه السلام .

قال الشوكاني : ها هنا كلام مطويّ ، والتقدير : فاطمأنت إلى قوله ، فدنا منها ، فنفخ في جيب درعها ، فوصلت النفخة إلى بطنها فحملته.

قال الشنقيطي : ... ولكنه تعالى بين كل ذلك في غير هذا الموضع ، فأشار إلى أن كيفية حملها أنه نفخ فيها فوصل النفخ إلى فرجها فوقع الحمل بسبب ذلك ، كما قال (وَمَرْيَمَ ابنة عِمْرَانَ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا) وقال (والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا) الآية. والذي عليه الجمهور من العلماء: أنا لمراد بذلك النفخ نفخ جبريل فيها بإذن الله فحملت، كما تدل لذلك قراءة الجمهور في قوله (قَالَ إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً) كما تقدم. ولا ينافي ذلك إسناد الله جل وعلا النفخ المذكور لنفسه في قوله (فنفخنا) لأن جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمره ومشيئته ، وهو تعالى الذي خلق الحمل من ذلك النفخ. فجبريل لا قدرة له على أن يخلق الحمل من ذلك النفخ ومن أجل كونه بإذنه ومشيئته وأمره تعالى ، ولا يمكن أن يقع النفخ المذكور ولا وجود الحمل إلا منه إلا بمشيئة جل وعلا – أسنده إلى نفسه – والله تعالى أعلم.

قال ابن كثير : ...ثُمَّ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مُدَّةِ حَمْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَالْمَشْهُورُ عَنِ الْجُمْهُورِ أَنَّهَا حَمَلَتْ بِهِ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ.

وقال الشنقيطي : وأقوال العلماء في قدر المدة التي حملت فيها مريم قبل الوضع لم نذكرها، لعدم دليل على شيء منها. وأظهرها: أنه حمل كعادة حمل النساء وإن كان منشؤه خارقاً للعادة، والله تعالى أعلم.

(**فَانتَبَذَتْ بِهِ**) أي : تنحت به .

(**مَكَانًا قَصِيًّا**) أي : إلى مكان بعيد عن المكان الذي يسكنه أهلها .

ولجمهور على أن المكان المذكور بيت لحم .

ومعنى الآية : أنها حملت بالجنين فاعتزلت – وهو في بطنها – مكانا بعيدا عن أهلها خشية أن يعيروها بالولادة من غير زوج .

قال القرطبي : أي تنحت بالحمل إلى مكان بعيد ؛ قال ابن عباس : إلى أقصى الوادي ، وهو وادي بيت لحم بينه وبين إيلياء أربعة أميال ؛ وإنما بعدت فراراً من تعيير قومها إياها بالولادة من غير زوج.

قال ابن عباس : ما هو إلا أن حملت فوضعت في الحال وهذا هو الظاه ؛ لأن الله تعالى ذكر الانتباذ عقب الحمل. (القرطبي)

(**فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ**) أي : ألجأها الطلق إلى جذع النخلة ، أي جذع نخلة في ذلك المكان .

والمخاض : الطلق ، وهو وجع الولادة ، وسمي مخاضاً من المخض ، وهو الحركة الشديدة لشدة تحرك الجنين في بطنها إذا أراد الخروج.

(**قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا**) أي : قبل هذا الحال.

– تمنت مريم الموت لسببين:

الأول: خوفاً من أن يقع أناس ويفتنوا بسببها.

الثاني: حتى لا تتهم بدينها.

قال الجصاص : قَالَ قَائِلُونَ : إنَّمَا تَمَنَّتْ الْمَوْتَ لِلْحَالِ الَّتِي دُفِعَتْ إلَيْهَا مِنْ الْوِلَادَةِ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ.

وَهَذَا خَطَأٌ؛ لِأَنَّ هَذِهِ حَالٌ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ ابْتَلَاهَا بِهَا وَصَيَّرَهَا إلَيْهَا وَقَدْ كَانَتْ هِيَ رَاضِيَةٌ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لَهَا بِذَلِكَ مُطِيعَةً لِلَّهِ، وَتَسَخُّطُ فِعْلِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ مَعْصِيَةٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَفْعَلُ إلَّا مَا هُوَ صَوَابٌ وَحِكْمَةٌ ، فَعَلِمْنَا أَنَّهَا لَمْ تَتَمَنَّ الْمَوْتَ لِهَذَا الْمَعْنَى وَإِنَّمَا تَمَنَّتْهُ لِعِلْمِهَا بِأَنَّ النَّاسَ سَيَرْمُونَهَا بِالْفَاحِشَةِ فَيَأْثَمُونَ بِسَبَبِهَا ، فَتَمَنَّتْ أَنْ تَكُونَ قَدْ مَاتَتْ قَبْلَ أَنْ يَعْصِيَ النَّاسُ اللَّهَ بِسَبَبِهَا.

وقال ابن عطية : وتمنت مريم الموت من جهة الدين إذ خافت أن يظن بها الشر في دينها وتعير فيفتنها ذلك وهذا مباح ، وعلى هذا الحد تمناه عمر بن الخطاب ﷺ وجماعة من الصالحين ونهي النبي ﷺ عن تمني الموت إنما هو لضر نزل بالبدن وقد أباحه ﷺ في قوله : " يأتي على الناس زمان يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه ".

(**وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا**) أي : لم أخلق ولم أك شيئاً.

قال ابن كثير : قوله تعالى إخبارا عنها (قالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا) فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ تَمَنِّي الْمَوْتِ عِنْدَ الْفِتْنَةِ، فَإِنَّهَا عَرَفَتْ أَنَّهَا سَتُبْتَلَى وَتُمْتَحَنُ بِهَذَا الْمَوْلُودِ الَّذِي لَا يَحْمِلُ النَّاسُ أَمْرَهَا فِيهِ عَلَى السَّدَادِ، وَلَا يُصَدِّقُونَهَا فِي خبرها، وبعد ما كَانَتْ عِنْدَهُمْ عَابِدَةً نَاسِكَةً تُصْبِحُ عِنْدَهُمْ فِيمَا يَظُنُّونَ عَاهِرَةً زَانِيَةً، فَقَالَتْ: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا أَي قَبْلَ هَذَا الْحَالِ، وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا أَي لَمْ أُخْلَقْ وَلَمْ أَكُ شَيْئًا .

(**فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا**) قولان للعلماء في المراد به:

فقيل: هو جبريل، وهو قول ابن عباس.

وأهل هذا القول قالوا : لم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها.

وقيل: عيسى .

ورجحه : ابن جرير ، وابن عطية ، وابن عادل ، وابن عاشور ، والشنقيطي.

وتدل على ذلك قرينتان :

الأولى – أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه، وأقرب مذكور في الآية هو عيسى لا جبريل.

القرينة الثانية – أنها لما جاءت به قولها تحملهن وقالوا لها ما قالوا أشارت إلى عيسى ليكلموه. كما قال تعالى عنها (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً) وإشارتها إليه ليكلموه قرينة على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم على سبيل خرق العادة لندائه لها عندما وضعته. وبهذه القرينة الأخيرة استدل سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه على أنه عيسى. كما نقله عنه غير واحد.

(**أَلاَّ تَحْزَنِي**) أي : ناداها قائلاً لها: لا تحزني .

(**قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا**) أي : جعل جدولاً صغيراً يجري أمامك .

قال ابن الجوزي :انه النهر الصغير ، قاله جمهور المفسرين .

(**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ**) أي : حركي جذع النخلة اليابسة .

(**تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**) أي : طرياً لذيذاً نافعاً .

(**فَكُلِي**) من التمر .

(**وَاشْرَبِي**) من النهر .

(**وَقَرِّي عَيْنًا**) بهذا المولود عيسى، ولا تحزني.

قال الشنقيطي : قال بعض العلماء : إن جذع النخلة الذي أمرها أن تهز به كان جزعاً يابساً ؛ فلما هزته جعله الله نخلة ذات رطب جني.

وقال بعض العلماء : كان الجذع جذع نخلة نابتة إلا أنها غير مثمرة ، فلما هزته أنبت الله فيه الثمر وجعله رطباً جنياً.

وقال بعض العلماء : كانت النخلة مثمرة ، وقد أمرها الله بهزها ليتساقط لها الرطب الذي كان موجوداً.

والذي يفهم من سياق القرآن : أن الله أنبت لها ذلك الرطب على سبيل خرق العادة ، وأجرى لها ذلك النهر على سبيل خرق العادة. ولم يكن الرطب والنهر موجودين قبل ذلك ، سواء قلنا إن الجذع كان يابساً أو نخلة غير مثمرة ، إلا ان الله أنبت فيه الثمر وجعله رطباً جنياً. ووجه دلالة السياق على ذلك أن قوله تعالى (فَكُلِي واشربي وَقَرِّي عَيْناً) يدل على أن عينها إنما تقر في ذلك الوقت بالأمور الخارقة للعادة ؛ لأنها هي التي تبين براءتها مما اتهموها به.

فوجود هذه الخوارق من تفجير النهر ، وإنبات الرطب ، وكلام المولود تطمئن إليه نفسها وتزول به عنها الريبة ، وبذلك يكون قرة عين لها ؛ لأن مجرد الأكل والشرب مع بقاء التهمة التي تمنت بسببها أن تكون قد ماتت من قبل وكانت نسياً منسياً لم يكن قرة لعينها في ذلك الوقت كما هو ظاهر. وخرق الله لها العادة بتفجير الماء ، وإنبات الرطب ، وكلام المولود لا غرابة فيه. وقد نص الله جل وعلا في « آل عمران » عل خرقه لها العادة في قوله (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يا مريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

(**فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا**) أي : مهما رأيت من أحد .

(**فَقُولِي**) المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك، لا أن المراد به القول اللفظي لئلا ينافي [فلن أكلم اليوم إنسياً] .

واختاره : السمرقندي ، وابن كثير ، وأبو السعود ، والسعدي .

وقال بعض العلماء : أمرت أن تقول ذلك باللفظ.

وهذا مذهب الجمهور ؛ كما قاله القرطبي وأبو حيان .

قال ابنُ عطية: ظاهِرُ الآيةِ أنَّها أُبيحَ لها أن تقولَ هذه الألفاظَ التي في الآيةِ، وهو قَولُ الجُمهور .

وقال القرطبي : وظاهر الآية أنها أبيح لها أن تقول هذه الألفاظ التي في الآية ، وهو قول الجمهور.

وقال أبو حيان : الظاهر أنه أبيح لها أن تقول ما أُمِرَت بقوله وهو قول الجمهور. انتهى .

لأن ظاهر القول في قوله تعالى (فقولي إِنِّيَ نَذَرْتُ) أنه قول باللسان.

واستدل من قال : إنها أمرت أن تقول ذلك بالإشارة بأنها لو قالته باللفظ أفسدت نذرها الذي نذرته ألا تكلم اليوم إنسياً ، فإذا قالت لإنسي بلسانها إني نذرت للرحمن صوماً فقد كلمت ذلك الإنسي فأفسدت نذرها. واختار هذا القول الأخير لدلالة الآية عليه ابن كثير رحمه الله .

(**إِنِّيَ نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا**) أي : سكوتاً .

(**فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا**) أي : فلن أكلم أحداً من الناس.

أمَرَها اللهُ تعالى بأن تنذرَ الصَّومَ؛ لئلَّا تَشرعَ مع مَن اتَّهمها في الكلامِ لِمَعنيين:

أحدُهما: أنَّ كلامَ عيسى عليه السَّلامُ أقوى في إزالةِ التُّهمةِ مِن كلامِها، وفيه دَلالةٌ على أنَّ تفويضَ الأمرِ إلى الأفضَلِ أَولى.

والثاني: كراهةُ مُجادلةِ السُّفهاءِ، وفيه أنَّ السُّكوتَ عن السَّفيهِ واجِبٌ، ومِن أذَلِّ النَّاسِ سَفيهٌ لم يجِدْ مُسافِهًا .

قال أبو السعود : قولها (فَلَنْ أُكَلّمَ اليوم إنسِيّاً) أي بعد أن أخبرتُكم بنذري وإنما أكلم الملائكةَ وأناجي ربي ، وقيل : أُمِرت بأن تخبرَ بنذرها بالإشارة وهو الأظهرُ .

وقال السعدي: فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر أن تقول على وجه الإشارة إني نذرت للرحمن صوماً، لتستريح من قولهم وكلامهم، وإنما لم تؤمر بمخاطبتهم في نفْي ذلك عن نفسها، لأن الناس لا يصدقونها، ولا فائدة فيه، وليكون تبرئتها بكلام عيسى في المهد، أعظم شاهداً على قراءتها.

الفوائد :

١-حمل مريم بعيسى بعد النفخ فيها من روح الله .

٢-جواز تمني الموت خوف الفتنة ، فالموت على الإسلام مطلب لأهل الصلاح:

كما قال تعالى عن يوسف أنه قال (تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ).

وقول المؤمنين بموسى (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ).

وقول إبراهيم ويعقوب لأبنائهما (فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ).

فيجوز تمني الموت عند خوف الفتنة على دينه.

قال النووي: ... فَأَمَّا إِذَا خَافَ ضَرَرًا فِي دِينه أَوْ فِتْنَة فِيهِ، فَلَا كَرَاهَة فِيهِ؛ لِمَفْهُومِ هَذَا الْحَدِيث وَغَيْره، وَقَدْ فَعَلَ هَذَا الثَّانِي خَلَائِق مِنْ السَّلَف عِنْد خَوْف الْفِتْنَة فِي أَدْيَانهم.

قال ابن رجب: وأما تمني خوف فتنة في الدين، فإنه يجوز بغير خلاف.

وقال في موضع آخر: هو جائز عند أكثر العلماء.

قال ﷺ (... وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون) رواه أحمد.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلاَّ الْبَلاَءُ) رواه مسلم.

فقوله ﷺ (وليس به الدين) يقتضي إباحة ذلك أن لو كان عن الدين.

وعنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال (اثْنَتَانِ يَكْرَهُهُمَا ابْنُ آدَمَ: الْمَوْتُ، وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ الْفِتْنَةِ، وَيَكْرَهُ قِلَّةَ الْمَالِ، وَقِلَّةُ الْمَالِ أَقَلُّ لِلْحِسَابِ) رواه أحمد.

وقال تعالى عن مريم (قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا).

قال القرطبي: تمنت مريم عليها السلام الموت من جهة الدين لوجهين:

أحدهما: أنها خافت أن يظن بها الشر في دينها وتعير فيفتنها ذلك.

ولذلك تمنى جماعة من السلف الموت خشية الفتنة.

لما حج عمر آخر حجة حجها رفع يديه وقال: اللهم إنه كبر سني ورق عظمي وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيّع ولا مفتون، ثم رجع إلى المدينة، فما انسلخ حتى قتل.

ودعا علي ربه أن يريحه من رعيته حيث سئم منهم فقتل عن قريب.

ودعت زينب بنت جحش لما جاءها عطاء عمر من المال فاستكثرته وقالت: اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعدها، فماتت قبل العطاء الثاني.

ولما ضجر عمر بن عبد العزيز من رعيته حيث ثقل عليهم قيامه فيهم بالحق طلب من رجل كان معروفاً بإجابة الدعوة أن يدعو له بالموت، فدعا له ولنفسه بالموت فماتا.

ودعي طائفة من السلف الصالح إلى ولاية القضاء فاستُهْمِلوا ثلاثة أيام، فدعوا الله لأنفسهم بالموت فماتوا.

واطلع على حال بعض الصالحين ومعاملاته التي كانت سراً بينه وبين ربه، فدعا الله أن يقبضه إليه خوفاً من فتنة الاشتهار، فمات، فإن الشهرة بالخير فتنة.

وكان سفيان الثوري يتمنى الموت كثيراً فسئل عن ذلك فقال: ما يدريني لعلي أدخل في بدعة، لعلي أدخل فيما لا يحل لي، لعلي أدخل في فتنة أكون قد مت فسبقت هذا.

وفي الحديث (وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون).

جاء في الحديث في المسند قال – صلى الله عليه وسلم – (اثنتان يكرهما ابن آدم: يكره الموت والموت خير له من الفتنة، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب).

ولما ابتلي الإمام أحمد بفتنة الضراء صبر ولم يجزع وقال: كانت زيادة في إيماني، فلما ابتلي بفتنة السراء جزع وتمنى الموت صباحاً ومساء وخشي أن يكون نقصاً في دينه.

٣–إثبات كرامات الأولياء .

٤–التسبب في طلب الرزق .

٥–أن التسبب وفعل الأسباب لا ينافي التوكل ... وهذا أمرٌ كالمعلومِ مِن الدِّينِ بالضَّرورةِ: أنَّ الأخذَ بالأسبابِ في تحصيلِ المنافِعِ، ودَفعِ المضارِّ في الدُّنيا؛ أمرٌ مأمورٌ به شَرعًا لا ينافي التوكُّلَ على اللهِ بحالٍ؛ لأنَّ المكَلَّفَ يتعاطى السَّبَبَ امتِثالًا لأمرِ رَبِّه، مع عِلمِه ويقينِه أنَّه لا يقَعُ إلَّا ما يشاءُ اللهُ وُقوعَه، فهو متوكِّلٌ على اللهِ، عالمٌ أنَّه لا يُصيبُه إلَّا ما كتَبَ اللهُ له مِن خيرٍ أو شَرٍّ، ولو شاء الله تَخلُّفَ تأثيرِ الأسبابِ عن مُسَبّباتِها، لتخلَّفَ .

٦–قدرة الله في تيسير الرزق لمريم .

٧–كراهة مجادلة السفهاء .

(**فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)**) .

[مريم : ٢٧-٢٩] .

==========

(**فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ**) يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك وأن لا تكلم أحداً من البشر، فإنها ستكفى أمرها ويقام بحجتها، فسلمت الأمر لله واستسلمت لقضائه، فأخذت ولدها فأتت به قومها تحمله، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جداً وقالوا:

(**قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا**) أي : أمراً عظيماً.

قال الواحدي : عظيماً منكراً ولداً من غير أب .

وقال ابن عطية : وأكثر استعماله في السوء .

وقال السعدي : عظيماً وخيماً ، وأرادوا بذلك البغاء .

قال الشنقيطي في المرادِ بقولِهم (فَرِيًّا)يَعنونَ به الزِّنا؛ لأنَّ ولَدَ الزِّنا كالشَّيءِ المفترى المختَلَقِ؛ لأنَّ الزانيةَ تدَّعي إلحاقَه بمن ليس أباه، ويدُلُّ على أنَّ مُرادَهم بقولِهم: فَرِيًّا الزِّنا، قَولُه تعالى (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا) ؛ لأنَّ ذلك البُهتانَ العظيمَ هو ادِّعاؤُهم أنَّها زنَتْ .

قال ابن عاشور : وجملة (تَحْمِلُهُ) ... وهذه الحال للدلالة على أنها أتت معلنة به غير ساترة لأنها قد علمت أن الله سيبرئها ممّا يُتهم به مِثل من جاء في حالتها.

(يَا أُخْتَ هَارُونَ) ليس المراد به هارون بن عمران أخا موسى كما يظنه بعض الجهلة. وإنما هو رجل آخر صالح من بني إسرائيل يسمى هارون.

والدليل : عن المغيرة بن شعبة قال (لما قدمت نجران سألوني فقالوا : إنكم تقرؤون (يا أخت هَارُونَ) وموسى قبل عيسى بكذا وكذا. فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال : « إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين منهم) رزاه مسلم .

وقد اختلف العلماء ما المراد بهارون هنا؟

قيل: نسبة إلى رجل صالح في قومها اسمه هارون، أي يا شبيهة هارون بالعبادة.

والمراد أنك كنت في الزهد كهارون فكيف صرت هكذا .

قال الواحدي : يَا أُخْتَ هَارُونَ قال ابنُ عباس، وقتادة: هارونُ رجلٌ صالحٌ مِن بني إسرائيل، يُنسَبُ إليه مَن عُرِفَ بالصَّلاحِ، والمعنى: يا شبَيهتَه فِي العِفَّةِ، وعلى هذا يدُلُّ حديثُ المغيرةِ بنِ شُعبةَ . (الوسيط) .

وقال ابن جرير : والصوابُ مِن القَولِ في ذلك ما جاء به الخبَرُ عن رسولِ اللهِ ﷺ الذي ذكرناه، وأنَّها نُسِبَت إلى رجلٍ مِن قَومِها.

وقيل: كانت من نسل هارون، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم.

وقيل : كان رجلاً معلناً بالفسق فنسبت إليه بمعنى التشبيه لا بمعنى النسبة.

وقيل : كان لها أخ يسمى هرون من صلحاء بني إسرائيل فعيرت به .

قال الرازي : وهذا هو الأقرب لوجهين : الأول : أن الأصل في الكلام الحقيقة وإنما يكون ظاهر الآية محمولاً على حقيقتها لو كان لها أخ مسمى بهارون.

الثاني : أنها أضيفت إليه ووصف أبواها بالصلاح وحينئذ يصير التوبيخ أشد لأن من كان حال أبويه وأخيه هذه الحالة يكون صدور الذنب عنه أفحش.

وقال ابن عاشور : قوله تعالى (يا أُخْتَ هارُونَ) يحتمل أن يكون على حقيقته ، فيكون لمريم أخ اسمه هارون كان صالحاً في قومــه ، خاطبوها بالإضافة إليه زيادة في التوبيخ ، أي ما كان لأخت مثله أن تفعل فعلتك ، وهذا أظهر الوجهين.

– وليس المراد به هارون أخا موسى بالاتفاق، لأن الله ذكر في كتابه أنه قفي بعيسى بعد الرسل، فدل على أنه آخر الأنبياء بعثاً، وليس بعده إلا محمد ﷺ ولهذا ثبت في الحديث الصحيح قال ﷺ (أنا أولى الناس بابن مريم، لأنه ليس بيني وبينه نبي).

(مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً) يا أخت الرجل الصالح هارون ما كان أبوك رجل سوء يأتي الفواحش، وما كانت أمك امرأة سوء تأتي البِغاء.

قال السعدي : أي لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصا هذا الشر، الذي يشيرون إليه، وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما؟ وأتيت بما لم يأتيا به؟. وذلك أن الذرية – في الغالب – بعضها من بعض، في الصلاح وضده، فتعجبوا – بحسب ما قام بقلوبهم – كيف وقع منها، فأشارت لهم إليه، أي: كلموه ... وإنما أشارت لذلك، لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها، أن، تقول (إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) .

قال ابن عاشور : وعنوا بهذا الكلام الكناية عن كونها أتت بأمر ليس من شأن أهلها ، أي أتت بسوء ليس من شأن أبيها وبغاء ليس من شأن أمّها ، وخالفت سيرة أبويها فكانت امرأة سوء وكانت بغياً ؛ وما كان أبوها امرأ سوء ولا كانت أمها بغياً فكانت مبتكرة الفواحش في أهلها ... وهم أرادوا ذمّها فأتوا بكلام صريحه ثناء على أبويها مقتض أن شأنها أن تكون مِثل أبويها.

(فأشارت إليه) أي أنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه.

قال الماوردي : فأشارت إلى عيسى أن كلموه فاحتمل وجهين :

أحدهما : أنها أحالت الجواب عليه استكفاء.

الثاني : أنها عدلت إليه ليكون كلامه لها برهاناً ببراءتها.

– ومعنى إشارتها إليه: أي أنهم يكلمونه فيخبرهم بحقيقة الأمر، بدليل أنهم قالوا :

(كيف نكلم من كان في المهد صبياً) فقالوا متهكمين بها ظانين أنها تزدري بهم وتلعب بهم (قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً) أي من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟

قال القرطبي : فقوله (من كان ...) كان هنا ليس يراد بها الماضي، لأن كل واحد قد كان في المهد صبياً، وإنما هي في معنى (هو).

قال السمرقندي : يعني من هو في الحجر رضيع ، ويقال معناه : كيف نكلم من هو يكون في المهد .

وقال البغوي : أي : هو في المهد وهو حجرها .

وقال السيوطي : من هو في الحِرَق طفلاً لا ينطق .

الفوائد :

١. أن عيسى من أم بلا أب .

٢. أن ولادة عيسى آية تدل على قدرة الله وعجيب صنعه .
٣. أن عيسى ليس بإله ولا ابن الله .
٤. أتت به مريم تحمله لثقتها ببراءتها وتبرئة الله لها .
٥. الإشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ إذا زنى؛ فقد يُبْتَلَى نسْلُه بالزِّنا، والعياذُ بالله .
٦. فيه تَنبيهٌ على أنَّ الفواحشَ من أولادِ الصَّالحينَ أفحَشُ .
٧. الذُّريَّةُ -في الغالِبِ- بَعضُها مِن بعضٍ، في الصَّلاحِ وضِدِّه .

(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)) .
[مريم : ٣٠-٣٣] .
==========

(**قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ**) أي: فنطَقَ عيسَى وهو صبيٌّ في المهدِ، فقال: إنِّي عبدُ اللهِ؛ فهو الذي يستَحِقُّ العبادةَ وَحْدَه، لا شَريكَ له .
قال ابن كثير : أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ نَزَّهَ جَنَابَ رَبِّهِ تَعَالَى وبرأه عَنِ الْوَلَدِ، وَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ الْعُبُودِيَّةَ لِرَبِّهِ.
قال الماوردي : وإنما قدم إقراره بالعبودية ليبطل به قول من ادعى فيه الربوبية وكان الله هو الذي أنطقه بذلك لعلمه بما يتقوله الغالون فيه.
قال ابن الجوزي : قال المفسرون : إنما قدَّم ذِكر العبودية ، ليُبطلَ قول من ادَّعى فيه الربوبية.
وقال الشوكاني : فكان أوّل ما نطق به ، الاعتراف بالعبودية لله .
وقال القاسمي : (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ) أنطقه الله بذلك . أولاً تحقيقاً للحق في شأنه وتنزيهاً لله تعالى عن الولد ، ردّاً على من يزعم ربوبيته ونبوَّته .
وقال ابن عاشور : والابتداء بوصف العبودية لله ألقاه الله على لسان عيسى لأن الله علم بأن قوماً سيقولون : إنه ابن الله.
(**آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**) أي: قضى اللهُ وقَدَّرَ مِن قبلُ أنَّه سيُؤتيني الإنجيلَ، وسيَجعَلُني نَبيًّا .
وإنما جاء بلفظ الماضي لإفادة تحققه ، فإن ما حكم به الله أزلا لا بد إلا أن يقع .
قال الماوردي (ءَآتَانِيَ الْكِتَابَ) أي سيؤتيني الكتاب.
وقال القرطبي : أي حكم لي بإيتاء الكتاب والنبوة في الأزل ، وإن لم يكن الكتاب منزلاً في الحال ؛ وهذا أصح.
وقال الشوكاني : (آتاني الكتاب) أي الإنجيل ، أي حكم لي بإيتائي الكتاب والنبوّة في الأزل ، وإن لم يكن قد نزل عليه في تلك الحال ولا قد صار نبياً وقيل : إنه آتاه الكتاب وجعله نبياً في تلك الحال ، وهو بعيد .
وقال ابن عاشور : والتعبير عن إيتاء الكتاب بفعل المضي مراد به أن الله قدّر إيتاءه إياه ، أي قدّر أن يؤتيني الكتاب.
وقال الشنقيطي: وقولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، التَّحقيقُ فيه إنْ شاءَ اللَّهُ: أنَّه عَبَّر بالماضي عمَّا سيَقَعُ في المستقبلِ؛ تنزيلًا لتحَقُّقِ الوقوعِ منزلةَ الوقوعِ، ونظائِرُه في القرآنِ كثيرةٌ :
كقولِه تعالَى (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) .
وقولِه تعالَى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ... إلى قولِه: وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا) .

وقولِه تعالَى (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ)... وهذا الَّذي ذَكَرْنا مِن أنَّ الأفعالَ الماضيةَ في قولِه تعالَى: آتَانِيَ الْكِتَابَ ... إلخ، بمعنَى المستقبلِ هو الصَّوابُ إن شاءَ اللَّهُ، خلافًا لمن زَعَم أنَّه نُبِّئ وأُوتِيَ الكتابَ في حالِ صِباهُ لظاهِرِ اللَّفظِ). (أضواء البيان) .

(**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ**) أي: وجعَلَني ذا بَرَكاتٍ، كثيرَ الخَيراتِ، ومِن ذلك أن أكونَ نفَّاعًا للخَلقِ، مُعَلِّمًا للخيرِ في أيِّ مكانٍ وزَمانٍ أكونُ فيه .

قال القاسمي : (وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ) أي : كثير الخير حيثما وجدت . أبلغ وحي ربي لتقويم النفوس وكبح الشهوات والأخذ بما هو مناط السعادات .

وقال الشنقيطي : وقوله (وجعلني مباركاً) أي كثير البركات. لأنه يعلم الخير ويدعو إلى الله ، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله.

وقال ابن القيم : قال المسيحُ: وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ قال غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ: مُعلِّمًا للخيرِ أينَما كنتُ، وهذا جزءُ المسمَّى؛ فالمبارَكُ كثيرُ الخيرِ في نَفسِه، الذي يحصِّلُه لغيرِه: تعليمًا وإقدارًا، ونُصحًا وإرادةً واجتهادًا؛ ولهذا يكونُ العبدُ مُباركًا لأنَّ الله بارَك فيه وجعَله كذلك .

وقال ابنُ عاشور: ذلك أنَّ الله أرسَلَه برَحمةٍ لبني إسرائيل؛ لِيُحِلَّ لهم بعضَ الذي حُرِّمَ عليهم، ولِيَدعوَهم إلى مكارمِ الأخلاق بعدَ أن قَسَت قلوبُهم وغَيَّروا مِن دينِهم، فهذه أعظَمُ بَرَكةٍ تُقارِنُه، ومِن بركتِه أن جعَل اللهُ حُلولَه في المكانِ سَبَبًا لخيرِ أهلِ تلك البُقعةِ؛ مِن خِصبِها، واهتداءِ أهلِها، وتوفيقِهم إلى الخير .

فضل أن يكون مباركاً :

الرجل المبارك: مفتاحُ خير، دلاَّلُ معروف، وسفيرُ هداية، ورسولُ صَلاح وإصلاح، تَهْتفُ له الألسنةُ بالثناء، وترتفعُ له الأكفُّ بالدُّعاء بالبركةِ والبركات، دعا الأنبياء وسألُوا، وسعوا إليها وتحلَّوا .

فهذا عيسى عليه السلام قال عن نفسه (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ) .

ودعا نوح ربَّه (رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِين) .

أما إبراهيُم خليلُ الرحمن، فكان مباركًا ببركة الله عليه (وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ) .

الرجلُ المبارك: هو مَن فَتَحَتْ له البركةُ أبوابَها، فكان مباركًا في علمه، وعمله، وعمرِه، ومالِه، وذرِّيته، وبقيةِ شؤون حياتِه، فهلاَّ حدَّثْتَ نفسَك – أخي الكريم – أن تكونَ هذا الرجل، فحيَّهلا بك، فالطريقُ أمامك مفتوحٌ، وسبيلُ الوُصُولِ إليه سهلٌ ممنوح.

أسباب تحصيل البركة : تحقيق تقوى الله تعالى، ومراقبته في السرِّ والعلانية .

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْض) .

لن تضيقَ أرضٌ على عبدٍ اتَّقى الله، ولن يضيقَ عيشٌ على عبْدٍ عرفَ مَوْلاه (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) .

ومنها : صلةُ الأرحام .

قال ﷺ (مَن أحبَّ أن يُبسطَ له في رِزْقِه، ويُنسأ له في أثرِه، فلْيصلْ رَحِمه) .

وقال أيضًا (تعلَّموا مِن أنسابِكم ما تصلون به أرحامَكم؛ فإنَّ صلَة الرَّحِم محبَّةٌ في الأهل، مثراةٌ في المال، منسأةٌ في الأثر). رواه الإمام أحمد، وغيرُه

ومنها : قراءة القرآن .

قال تعالى (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ) .

قال بعض السلف : لو تفرغت قلوبكم ما شبعتم من قراءة القرآن .

قال بعض العلماء : اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات .

ومنها : الدعاء :

قال تعالى (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء) .

طيبة : أي طائعة لله تعالى منيبة اليه .

وقال الله عنه (... فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) .

كان ﷺ يدعو للمتزوجين بالبركة . (بارك الله لك ، وبارك عليك ، وجمع بينكما في خير) .

وكان ﷺ يؤتى بالصبيان فيدعو لهم ويبرك عليهم .

وعلمنا ﷺ أن ندعو لمن أطعمنا فنقول: "اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم وارحمهم" .

وعلمنا أن ندعو بالبركة في طعامنا فنقول: "اللهم بارك لنا فيه" .

وكان ﷺ يؤتى بِالأَطْفالِ فيَدْعُو لهم بالبركة .

وإذا أتوه بالباكورة من الثمرة دعا فيها بالبركة، فقال (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا وَفِي ثِمَارِنَا وَفِي مُدِّنَا وَفِي صَاعِنَا بَرَكَةً مَعَ بَرَكَةٍ ثُمَّ يُعْطِيهِ أَصْغَرَ مَنْ يَحْضُرُهُ مِنَ الْوِلْدَان) .

ومنها : أخذ المال وطلبه بطيب نفس من غير شره ولا إلحاح .

عن حكيم بن حزام . قال : قال ﷺ (عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ « إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى) .

فليحذر الإنسان من أن يطلب المال بطمع أو شره أو قلة توكل .

قال سعد لابنه : إياك والطمع فإنه فقر حاضر ، وعليك بالقناعة فإنها مال لا ينفد .

وقال ﷺ (وأعوذ بك من نفس لا تشبع) .

وكان عمر يقول في خطبته على المنبر : إنَّ الطمع فقر، وإنَّ اليأس غنى، وإنَّ الإنسانَ إذا أَيِسَ من الشيء استغنى عنه.

ومنها : الصدق في المعاملة من بيع او شراء او غيرها .

عن حكيم بن حزام ﷺ قال: قال النبي ﷺ (الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا) .

عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَا عَ ، وَإِذَا اشْتَرَى ، وَإِذَا اقْتَضَى) .

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُــولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِــرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا. فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ) ق .

ومنها: قضاء الأعمال والتجارات في أول النهار.

فعن صخر الغامدي ﷺ عن النبي ﷺ قال (اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا) .

قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية بعثها أول النهار، وكان صخر رجلاً تاجرًا، وكان لا يبعث غلمانه إلا من أول النهار، فكثر ماله حتى كان لا يدري أين يضع ماله .

ومنها: اتباع السنة في الطعام والشراب .

فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ (الْبَرَكَةُ تَنْزِلُ وَسَطَ الطَّعَامِ، فَكُلُوا مِنْ حَافَتَيْهِ وَلَا تَأْكُلُوا مِنْ وَسَطِهِ) .

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال (أمر رسول الله ﷺ بلعق الأصابع والصحفة ، وقال : إِنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ فِي أَيِّ طَعَامِكُمُ البَرَكَة)

وعن وحشي ﷺ: "أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا نأكل ولا نشبع" قال : فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ؟ قالوا: نعم، قال : فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ، يُبَارَكْ لَكُمْ فِيه) .

(**وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا**) أي : أوصاني بالمحافظة على الصلاة والزكاة مدة حياتي .

كما قال تعالى لنبيه (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ).

(**وَبَرًّا بِوَالِدَتِي**) أَيْ : وَأَمَرَنِي بِبِرِّ وَالِدَتِي، ذَكَرَهُ بَعْدَ طَاعَةِ اللَّهِ رَبِّهِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يُقْرِنُ بَيْنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ وَطَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً) .

وَقَالَ (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) .

قال الشوكاني : واقتصر على البرّ بوالدته لأنه قد علم في تلك الحال أنه لم يكن له أب .

وقال ابن عاشور : وقد خصه الله تعالى بذلك بين قومه ، لأن برّ الوالدين كان ضعيفاً في بني إسرائيل يومئذ ، وبخاصة الوالدة لأنها تستضعف ، لأن فرط حنانها ومشقتها قد يجرئان الولد على التساهل في البرّ بها.

(**وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا**) الجبار المتعظم المتكبر ، يقتل ويضرب على الغضب .

قال السمعاني : الجبار : المتكبر .

وقال البيضاوي : عند الله من فرط تكبره .

وقال السعدي : متكبراً على الله ، مترفعاً على عباده .

(**شَقِيًّا**) أَيْ : وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَبِرِّ وَالِدَتِي، فَأَشْقَى بِذَلِكَ.

قال السعدي : شقياً : في دنياي وأخراي ، فلم يجعلني كذلك ، بل جعلني مطيعاً له خاضعاً خاشعاً متذللاً ، متواضعاً لعباد الله ، سعيداً في الدنيا والآخرة .

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَا تَجِدُ أَحَدًا عَاقًّا لِوَالِدَيْهِ إِلَّا وَجَدْتَهُ جَبَّارًا شَقِيًّا، ثُمَّ قَرَأَ: وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا قَالَ: وَلَا تَجِدُ سَيِّئَ الْمَلَكَةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ مُخْتَالًا فَخُورًا، ثُمَّ قَرَأَ (وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالًا فَخُوراً) .

قال قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ امْرَأَةَ رَأَتِ ابْنَ مَرْيَمَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَيُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ فِي آيَاتٍ سَلَّطَهُ اللَّهُ عَلَيْهِنَّ وَأَذِنَ لَهُ فِيهِنَّ، فقالت: طوبى للبطن الذي حملك، وطوبى للثدي الَّذِي أُرْضِعْتَ بِهِ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى عليه السلام يجيبها: طوبى لمن تلا كتاب اللَّهِ فَاتَّبَعَ مَا فِيهِ، وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا شَقِيًّا .

(**وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**) أي : سلام الله علي في يوم ولادتي ، وفي يوم مماتي ، وفي يوم خروجي حيا من قبري .

عن أبي هُريرةَ ﷺ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ (ما مِن بَني آدمَ مَولودٌ إلَّا يَمَسُّه الشَّيطانُ حين يُولَدُ، فيَستَهِلُّ صارِخًا مِن مَسِّ الشَّيطانِ، غيرَ مَريمَ وابنِها) ثمَّ يقولُ أبو هريرةَ: (وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) .

وفي روايةٍ (كُلُّ بني آدمَ يَطْعُنُ الشَّيطانُ في جنبَيْه بإصبعِه حينَ يُولَدُ غيرَ عيسى بنِ مريمَ؛ ذَهَب يَطْعُنُ فطَعَن في الحجابِ) .

قال ابن كثير : إِثْبَاتٌ مِنْهُ لِعُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ خَلْقِ الله يحيى وَيَمُوتُ وَيُبْعَثُ كَسَائِرِ الْخَلَائِقِ، وَلَكِنْ لَهُ السَّلَامَةَ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الَّتِي هِيَ أَشَقُّ مَا يَكُونُ عَلَى الْعِبَادِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

تنبيه :

هذه أول كلمة نطق بها السيد المسيح عليه السلام ، وهو طفل رضيع في المهد ، وهي إحدى معجزاته ، ولكننا لا نجد لها وجوداً في الأناجيل الآن ، فقد حذفها القسسُ والرهبان ، لأنها تبطل دعواهم أنه ابن الله ، مع أنها إحدى الخوارق العجيبة! ! وهكذا يعلن عيسى عبوديته لله ، فليس هو إلها ، ولا ابن إله ، ولا ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى ، إنما هو عبد ورسول ، يحيا ويموت كسائر البشر ، خلقه الله من أم دون أب ، ليكون آية على قدرة الله الباهرة ، ولهذا جاء التعقيب المباشر .

فائدة : ١

عقيدتنا في عيسى : أنه عبد الله ورسوله .

عبد الله [ليس بإله] ورسوله [فليس بكذاب أو أنه ولد بغي].

كما في حديث عبادة. قال: قال رسول الله (مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ).

وقال تعالى عنه (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ) أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه.

وقال تعالى (وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ).

وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ).

وقال تعالى عنه (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ).

وأنه من أم بلا أب.

كما قال تعالى (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ).

وقال تعالى (فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً).

وليس له شيء من حقوق الربوبية، فليس إلهاً.

قال تعالى (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوْا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً).

وقال تعالى (مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ).

ولم يقتل ولم يصلب بل رفعه الله إليه وسينزل في آخر الزمان.

قال تعالى (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ... بل رفعه إليه).

وقال تعالى (إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا).

وقال ﷺ (يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ...).

فائدة : ٢

الرد على من ادعى فيه الربوبية وكان الله هو الذي أنطقه بذلك لعلمه بما يتقوله الغالون فيه.

فائدة : ٣

إن أعظم ما يتشرف به العبد أن يكون عبداً لله تعالى .

وقد وصف الله نبيه محمد ﷺ بالعبودية في أعلى المقامات:

في مقام التحدي:

قال تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ) .

وفي مقام الإسراء والمعراج:

قال تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ).

وفي مقام الإيحاء:

قال تعالى (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى).

وفي مقام الدعوة:

قال تعالى (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً).

وقد قال تعالى عن المسيح ابن مريم (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه)، وقال ﷺ (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله) رواه البخاري.

– وصفه بالعبودية لأسباب :

أولاً : لمعرفة فضل وشرف أن يكون الإنسان عبداً لله .

ثانياً : أن أعظم صفات الرسل هي عبوديتهم لله .

ثالثاً : ليجتهد الإنسان ليكون عبداً لله ليصل للمراتب العالية عند الله .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له : كان أقرب إليه وأعز له وأعظم لقدره .

قال ابن تيمية: والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له: كان أقرب إليه وأعز له، وأعظم لقدره، فأسعد الخلق: أعظمهم عبودية لله، وأما المخلوق فكما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره.

فائدة : ٤

آية من آيات الله : أن تكلم عيسى في المهد .

وقال تعالى (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا)

(**تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ**) أي: يكلمهم وهو في المهد، آية من آيات الله تعالى. (المهد فراش الرضيع).

(**وَكَهْلًا**) أي: تكلمهم في المهد كما تكلمهم في الكهولة.

قال الزمخشري: معناه يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة.

قال أبو مسلم: معناه أنه يكلم حال كونه في المهد، وحال كونه كهلاً على حد واحد وصفة واحدة وذلك لا شك أنه غاية في المعجزة.

وقال بعض العلماء: وفائدة الآية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلمهم في المهد ويعيش إلى أن يكلمهم كهلاً، إذ كانت العادة أن من تكلم في المهد لم يعش.

قال الأصم: المراد منه أنه يبلغ حال الكهولة.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلاً عَابِداً ...).

فائدة : ٥

إثبات نبوة عيسى عليه السلام ، فهو أحد أولي العزم من الرسل [وقد ذكرهم الله في موضعين]:

الموضع الأول : في سورة الأحزاب.

قال تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً).

الموضع الثاني : في سورة الشورى.

قال تعالى (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ).

فائدة : ٦

قال الله تعالى (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) مع أنَّ الذي اشتَدَّت الحاجةُ إليه في ذلك الوَقتِ إنَّما هو نفيُ تُهمةِ الزِّنا عن مَريمَ عليها السَّلامُ، إلَّا أنَّ عيسى عليه السلام لم يَنُصَّ على ذلك، وإنَّما نَصَّ على إثباتِ عُبوديَّةِ نَفسِه، كأنَّه جَعَل إزالةَ التُّهمةِ عن اللهِ تعالى أَولى من إزالةِ التُّهمةِ عن الأمِّ؛ فلهذا أوَّلَ ما تكَلَّمَ إنَّما تكَلَّمَ بها . (الرازي) .

فائدة : ٧

قولُه تعالى (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ...) فيه تنبيهٌ على بَراءةِ أُمِّه ممَّا اتُّهِمَتْ به؛ لأنَّه تعالى لا يخُصُّ بولدٍ موصوفٍ بالنُّبوَّةِ والخلالِ الحميدةِ إلَّا مُبرَّأةً مُصطفاةً .

قال الرازي : أن التكلم بإزالة هذه التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم لأن الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة.

فائدة : ٨

ودلت هذه الآية على أن الصلاة والزكاة وبر الوالدين كان واجباً على الأمم السالفة، والقرون الخالية الماضية ، فهو مما يثبت حكمه، ولم ينسخ في شريعة أمره. (القرطبي) .

فائدة : ٩

كثيراً ما يقرن الله تبارك وتعالى بين الصلاة الزكاة كقوله تعالى (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ).

قيل: إن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وسعادة العبد دائرة بين الأمرين: إخلاصه لمعبوده، وسعيه في نفع الخلق.

وقيل: الصلاة رأس العبادات البدنية، والزكاة رأس العبادات المالية.

وقيل: الصلاة طهارة للنفس والبدن، والزكاة طهارة للمال.

قال السعدي: وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

فائدة : ١٠

فضل بر الوالدين .

فائدة : ١١

قال بعض العلماء : ثلاث مشاكل تحل بثلاث :

حب الشهوات : بالصلاة .

قال تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ) .

الاكتتاب : بالقرآن .

قال تعالى (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) .

الشقاء : ببر الوالدين .

قال تعالى (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) .

(ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)) .

[مريم : ٣٤-٣٧] .

==========

(ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ) أي : ذلك هو القول الحق في عيسى ابن مريم ، لا ما يصفه النصارى من أنه ابن الله ، أو اليهود من أنه ابن زنى ويشكون في أمره ويمترون .

قال الرازي : لا شبهة أن المراد بقوله (ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ) الإشارة إلى ما تقدم وهو قوله (إِنِّي عَبْدُ الله ءاتَانِيَ الكتاب) .

قال ابن تيمية: ولهذا لما ذكر الله المسيح في القرآن قال (ابن مريم) بخلاف سائر الأنبياء وفي ذلك فائدتان:

إحداهما: بيان أنه مولود، والله لم يولد.

والثانية: نسبته إلى مريم، بأنه ابنها ليس هو ابن الله.

(مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ) أي : ما يصح وما يستقيم وما يتصور في حقه تعالى أن يتخذ ولداً .

لأنه منزه عن ذلك، لأن الولد إنما يتخذه الفانون للامتداد، ويتخذه الضعفاء للنصرة، والله تعالى هو الباقي بقاء أبديا، وهو القوى القادر الذي لا يعجزه شيء.

كما قال تعالى (وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً) .

وفي هذه الآية الرد البالغ على النصارى الذين زعموا المحال في قولهم « عيسى ابن الله » وما نزه عنه جل وعلا نفسه هنا من الولد المزعوم كذباً كعيسى – نزه عنه نفسه في مواضع أخر ، كقوله تعالى (إِنَّمَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ) إلى قوله (إِنَّمَا الله إله وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ) . (أضواء)

فادعاء لله الولد أمر خطير وكبير.

كما قال تعالى (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً).

وقال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (قَالَ اللَّهُ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَداً) رواه البخاري.

وقال ﷺ (لا أحد أصبر على اذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم) متفق عليه.

(**سُبْحَانَهُ**) أي : تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة: من أنه لما ذكر وصف الكفار له بما لا يليق به، نزه نفسه عن ذلك، معلماً خلقه في كتابه أن ينزهوه عن كل ما لا يليق به، جاء موضحاً في آيات كثيرة:

كقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ).

وقوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ).

وقوله تعالى (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ).

وقوله تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ).

وقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ).

وقوله تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً).

وقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

وقوله تعالى (سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ).

والله منزه عن الولد لأمور متعددة:

أولاً: لأنه مالك كل شيء، والمالك لا بد أن يكون المملوك مبايناً له في كل الأحوال.

ثانياً: أنه ليس له زوجة، والابن إنما يكون غالباً ممن له زوجة، كما ذكر الله ذلك في سورة الأنعام (أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ).

ثالثاً: أن الولد إنما يكون لمن يحتاج للبقاء، أي: بقاء النوع باستمرار النسل، والرب عز وجل ليس بحاجة إلى ذلك، لأنه الحي الذي لا يموت.

رابعاً: أن الابن إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره، والله سبحانه وتعالى غني، وقد أشار إلى ذلك بقوله (سبحانه هو الغني). ... [قاله الشيخ ابن عثيمين].

قال الرازي: إن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالاً واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له، وبأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وقال في مريم (ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ قَوْلَ الحق الذي فِيهِ يَمْتُرُون مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سبحانه إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون) وقال أيضاً في آخر هذه السورة (وَقَالُوا اتخذ الرحمن وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً * أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً * إِن كُلُّ مَن فِي السموات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً).

(**إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**) يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيمِ سلطانهِ، وأنه إذا قدّر أمراً وأراد كونه؛ فإنما يقول له كن، أي مرة واحدة، فيكون، أي فيوجد على وفق ما أراد.

كما قال تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

وقال تعالى (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

وقال تعالى (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ).

المراد بقوله (قضى أمراً) أي: إذا أحكم أمراً وحتمه. (قاله ابن جرير).

والمراد بأمر الله هنا بمعنى الشأن، (فإذا قضى أمراً) أي شيئاً مقضياً، وليس الأمر هنا بمعنى الطلب.

كما في قوله تعالى (وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) أي: وما شأنه.

(**وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ**) أي : ومما آمرَ به عيسى قومَه وهو في المهد ، أن أخبرهم أن الله ربه وربهم ، فليفردوه بالعبادة فهذا من كلام عيسى ، وهو قول أكثر العلماء .

قال ابن جزي : هذا من كلام عيسى ، وقيل : من كلام النبي ﷺ والأول أظهر .

(**هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**) أَيْ : هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ عَنِ اللَّهِ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ، أَيْ قَوِيمٌ مَنِ اتَّبَعَهُ رَشَدَ وَهَدَى، وَمَنْ خَالَفَهُ ضَلَّ وَغَوَى.

(**فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ**) أي : اختلف أَقْوَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي عِيسَى بَعْدَ بَيَانِ أَمْرِهِ وَوُضُوحِ حَالِهِ، وَأَنَّهُ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَصَمَّمَتْ طَائِفَةٌ منهم، وَهُمْ جُمْهُورُ الْيَهُودِ. -عَلَيْهِمْ لِعَائِنُ اللَّهِ- عَلَى أَنَّهُ وَلَدُ زِنْيَةٍ، وَقَالُوا: كَلَامُهُ هَذَا سِحْرٌ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: إِنَّمَا تَكَلَّمَ اللَّهُ. وَقَالَ آخرون: بل هُوَ ابْنُ اللَّهِ. وَقَالَ آخَرُونَ: ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَهَذَا هُوَ قَوْلُ الْحَقِّ الَّذِي أَرْشَدَ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ .

(**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا**) الذين قالوا : عيسى ابن الله ، والذين قالوا : إنه ابن زنى .

والويل : كلمة تهديد ووعيد .

قال السعدي : وتأمل كيف قال (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) بعد قوله (فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ) ولم يقل "فويل لهم" ليعود الضمير إلى الأحزاب، لأن من الأحزاب المختلفين، طائفة أصابت الصواب، ووافقت الحق، فقالت في عيسى: "إنه عبد الله ورسوله" فآمنوا به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون، غير داخلين في هذا الوعيد، فلهذا خص الله بالوعيد الكافرين.

(**مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**) أيْ : فَوَيْلٌ لَهُمْ مِنْ شُهُودِ ذَلِكَ الْيَوْمِ - أَيْ حُضُورِهِ - لِمَا سَيُلَاقُونَهُ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ .

قال ابن الجوزي : (فويل للذين كفروا) بقولهم في المسيح (مِنْ مَشْهَدِ يومٍ عظيمٍ) أي : من حضورهم ذلك اليوم للجزاء.

قال الرازي : وإنما وصف ذلك المشهد بأنه عظيم لأنه لا شيء أعظم مما يشاهد في ذلك اليوم من محاسبة ومساءلة ، ولا شيء من المنافع أعظم مما هنالك من الثواب ولا بد من المضار أعظم مما هنالك من العقاب. أ هـ

الفوائد :

١. أن القول الحق في عيسى أنه عبد الله ورسوله .

٢. أن عيسى ابن مريم وليس ابن الله كما يدعيه الكفار .

٣. كفر من قال إن عيسى ابن الله .

٤. أن مريم الصديقة هي أم عيسى .

٥. أن عيسى من أم بلا أب .

٦. وجوب تنزيه الله عن كل نقص وعيب .

٧. أن ادعاء الولد لله كفر وشتم لله .

٨. أن الفقير العاجز هو من يحتاج الولد للمساعدة ، أما الله فهو الغني العظيم .

٩. أن الله لا يعجزه شيء .

١٠. وجوب عبادة الله .

١١. تهديد للأحزاب الذي قالت في عيسى غير الحق من اليهود والنصارى .

١٢. أن الحزب الحق هو من قال : عيسى عبد الله ورسوله .

١٣. تهديد الكفار بشدة وأهوال يوم القيامة .

١٤. أن يوم القيامة يوم عظيم شديد .

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)) .

[مريم : ٣٨-٤٠] .

==========

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) أي : ما أسمعهم وأبصرهم في ذلك اليوم الرهيب ! .

ومَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ الْكُفَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْمَعُونَ وَيُبْصِرُونَ الْحَقَائِقَ الَّتِي أَخْبَرَتْهُمْ بِهَا الرُّسُلُ سَمْعًا وَإِبْصَارًا عَجِيبَيْنِ ، وَأَنَّهُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا فِي ضَلَالٍ وَغَفْلَةٍ لَا يَسْمَعُونَ الْحَقَّ وَلَا يُبْصِرُونَهُ ، وَهَذَا الَّذِي بَيَّنَهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بَيَّنَهُ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ : كَقَوْلِهِ فِي سَمْعِهِمْ وَإِبْصَارِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) .

قال السعدي : (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) أي : ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم!. فيقرون بكفرهم وشركهم وأقوالهم ، ويقولون: (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) ففي القيامة، يستيقنون حقيقة ما هم عليه.

لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ) في الدنيا .

(فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) أي : لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون ، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون .

(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ) أي : أنذر الخلائق وخوفهم يوم الحسرة .

والإنذار : الإعلام المقرون بالتخويف .

والحسرة يوم القيامة . والحسرة : شدة الندم على الأمر الذي فات وانقضى ولا يمكن تداركه .

وَقِيلَ لَهُ : يَوْمُ الْحَسْرَةِ ؛ لِشِدَّةِ نَدَمِ الْكُفَّارِ فِيهِ عَلَى التَّفْرِيطِ ، وَقَدْ يَنْدَمُ فِيهِ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ التَّقْصِيرِ .

المرَادُ بِيَوْمِ الْحَسْرَةِ يَوْمُ الْحِسَابِ، أُضِيفَ الْيَوْمُ إِلَى الْحَسْرَةِ لِكَثْرَةِ مَا يَحْدُثُ فِيهِ مِنْ تَحَسُّرِ الْمُجْرِمِينَ عَلَى مَا فَرَّطُوا فِيهِ مِنْ أَسْبَابِ النَّجَاةِ، فَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ كَأَنَّهُ مِمَّا اخْتَصَّتْ بِهِ الْحَسْرَةُ، فَهُوَ يَوْمُ حَسْرَةٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ وَإِنْ كَانَ يَوْمَ فَرَحٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الصَّالِحِينَ.

وباعتبار آخر الناس جميعا يتحسرون يوم القيامة، المؤمن والمحسن يتحسر لعدم ازدياده من الطاعة والإحسان، والمسيء يتحسر لتفريطه في جنب الله وضياع أوقاته في المعاصي والموبقات.

قال السعدي : أحق ما ينذر به ويخوف به العباد، يوم الحسرة حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد، ويسألون عن أعمالهم، فمن آمن بالله، واتبع رسله، سعد سعادة لا يشقى بعدها، ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله شقي شقاوة لا سعادة بعدها، وخسر نفسه وأهله، فحينئذ يتحسر، ويندم ندامة تتقطع منها القلوب، وتنصدع منها الأفئدة، وأي: حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته، واستحقاق سخطه والنار، على وجه لا يتمكن من الرجوع، ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟ . (التفسير)

وَقَدْ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ :

كَقَوْلِهِ (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ) .

وَقَوْلِهِ (إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) .

وَأَشَارَ إِلَى مَا يَحْصُلُ فِيهِ مِنَ الْحَسْرَةِ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ :

كَقَوْلِهِ (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) .

وَقَوْلِهِ (كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) .

يتحسر الكافر ويندم ويتمنى الرجعة :

قال تعالى (يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّار) .

وقال تعالى (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً) .

وقال سبحانه (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُون) .

وقال سبحانه (إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً) .

في يوم الحسرة يرى الكافِرُ أنَّه لم يَلْبَثْ في دُنياه إلا قليلاً .

قال تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَار) .

وقال تعالى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) .

إنَّ من أعظم ما يتحسَّر عليه أهل النار: أن الواحد منهم يتمنَّى أنه يفدي نفسه من عذاب الله بماله وولده والناس أجمعين؛ بل ومُلْك الدنيا بأَسْرها، مع أنه طلب منه أهون من ذلك فلم يفعل .

قال تعالى (يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيه) .

وقال سبحانه (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِين) .

وعن أنس بن مالك ﷺ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال (يقول الله -تبارك وتعالى- لأَهْوَنِ أهل النار عذابًا: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردتُ منكَ أَهْوَنَ من هذا وأنت في صلب آدم: ألاَّ تُشْرِكَ - أحسبه قال - ولا أُدخِلُكَ النَّار، فأَبَيْتَ إلا الشِّرْكَ) رواه مسلم .

(**إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ**) وذلك عند ذبح الموت بين الجنة والنار، فريق في الجنة وفريق في النار .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ ثُمَّ يُنَادِي يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ ثُمَّ قَرَأَ (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ) وَهَؤُلاَءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا {وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) متفق عليه .

(**وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وهم لا يؤمنون**) أي : في غفلة الدنيا معرضون عن الآخرة .

قال السعدي : والحال أنهم في الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم لا يخطر بقلوبهم، ولو خطر فعلى سبيل الغفلة، قد عمتهم الغفلة، وشملتهم السكرة، فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسله، قد ألهتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتهم المنقضية الفانية ، فالدنيا وما فيها، من أولها إلى آخرها، ستذهب عن أهلها، ويذهبون عنها، وسيرث الله الأرض ومن عليها .

وفي هذا التحذير من الغفلة :

والغفلة هي: انغماس في الدنيا والشهوات ونسيان الآخرة فيجتهد الغافل في تعمير الدنيا الفانية وتخريب الآخرة الباقية .

يقول الله تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُم) .

والغفلة لها مفاسد :

الحذر من الغفلة؛ لأن أكثر الناس وقعوا في الغفلة .

قال الله تعالى (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُون) .

أنها سبب الهلاك:

قال تعالى (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِين) .

جعل أهلها حطب جهنم وأضل من الأنعام ، وعدم الانتفاع بالآيات .

قال تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) .

عدم طاعة الغافل .

قال تعالى (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) .

إدانة من يهتم بالدنيا دون الآخرة وهم الغافلون .

قال تعالى (يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) .

التحذير من أن يكون من الغافلين .

قال تعالى (وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ) .

الغفلة صفة من صفات أهل النار.

قال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون) .

أهل الغفلة لهم الحسرة يوم الحسرة.

قال الله تعالى (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ).

(**إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا**) يخبر تعالى أَنَّهُ يُمِيتُ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ السَّاكِنِينَ بِالْأَرْضِ ، وَيَبْقَى هُوَ جَلَّ وَعَلَا لِأَنَّهُ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ .

قال ابن كثير : يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، وَأَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ يَهْلَكُونَ وَيَبْقَى هُوَ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ، وَلَا أَحَدَ يَدَّعِي مُلْكًا وَلَا تَصَرُّفًا، بَلْ هُوَ الْوَارِثُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ الْبَاقِي بَعْدَهُمْ الْحَاكِمُ فِيهِمْ، فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَلَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

وقال ابن الجوزي : أي نميت سكانها فنرثها .

وقال الرازي : معناه أنه إذا مات جميع الخلائق ، فحينئذ يزول ملك كل أحد عند موته ، ويكون الله هو الباقي الحق المالك لكل المملوكات وحده فكان هذا شبيهاً بالإرث فكان وارثاً من هذا الوجه.

وقال الخازن : (ونحن الوارثون) وذلك بأن نميت جميع الخلق، فلا يبقى أحد سوانا فيزول ملك كل مالك ويبقى جميع ملك المالكين لنا والوارث هو الباقي بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقي بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقي بعد فناء خلقه الذين أمتعهم بما آتاهم في الحياة الدنيا لأن وجود الخلق.

(**وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**) أي : ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ :

كَقَوْلِهِ (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

الفوائد :

١. ما أشد سمع الكفار وبصرهم عند قدومهم على الله يوم القيامة ، لكن لا ينفعهم ذلك .

٢. إنذار الكفار يوم القيامة وتهديدهم به .

٣. يوم القيامة يتحسر الكفار على تفريطهم في الدنيا ويتمنون الرجعة .

٤. التحذير من الغفلة .

٥. كل أحد يموت إلا الله تعالى .

٦. أن الله هو الحي القيوم الذي لا يموت .

٧. وجوب الاعتماد والتوكل على الحي الذي لا يموت

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)) .

[مريم : ٤١-٤٥] .

==========

(**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ**) المعنى : واذكر في الكتاب الذي أنزل عليك وهو القرآن قصة إبراهيم وخبره.

قال ابن عاشور : ولما كان إبراهيم قد جاء بالحنيفية وخالفها العرب بالإشراك وهم ورثة إبراهيم كان لتقديم ذكره على البقية الموقع الجليل من البلاغة.

وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ على ما لقي من مشركي قومه لمشابهة حالهم بحال قوم إبراهيم . انتهى .

وهذا الذي أمر به نبيه هنا من ذكره في الكتاب إبراهيم {إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يا أبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ} الآية – أوضحه في سورة « الشعراء » في قوله (واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ) .

فقوله هنا (واذكر فِي الكتاب) هو معنى قوله (واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ) .

وزاد في « الشعراء » أن هذا الذي قاله لأبيه من النهي عن عبادة الأوثان قال أيضاً لسائر قومه. وكرر تعالى الإخبار عنه بهذا النهي لأبيه وقومه عن عباد الأوثان في مواضع أخر.

كقوله (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) .

وقوله تعالى (إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ الأقدمون فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين) .

وقوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هذه التماثيل التي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُواْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ قالوا أَجِئْتَنَا بالحق أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعبين قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السماوات والأرض الذي فطَرَهُنَّ وَأَنَاْ على ذلكم مِّنَ الشاهدين) .

وقوله تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الذي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) .

وقوله تعالى (وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ الله تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين) .

وقوله تعالى (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إِبْرَاهِيمَ والذين مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآؤاْ مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء أَبَداً حتى تُؤْمِنُواْ بالله وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) .

(**إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا**) الصديق صيغة مبالغة من الصدق.

لشدة صدق إبراهيم في معاملته مع ربه وصدق لهجته ، كما شهد الله له بصدق معاملته في قوله (وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى) .

وقوله (وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) .

ومن صدقه في معاملته ربه : رضاه بأن يذبح ولده ، وشروعه بالفعل في لك طاعة لربه. مع أ الولد فلذة من الكبد.

قال تعالى (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَن يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيآ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين) .

ومن صدقه في معاملته مع ربه : صبره على الإلقاء في النار.

كما قال تعالى (قَالُواْ حَرِّقُوهُ وانصروا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) .

وقال (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ الله مِنَ النار) .

ومن صدقه في معاملته ربه : صبره على مفارقة الأهل والوطن فراراً لدينه. كما قال تعالى (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إلى ربي) وقد هاجر من سواد العراق إلى دمشق . (أضواء)

قال الرازي : مبالغة في كونه صادقاً وهو الذي يكون عادته الصدق .

قال أبو السعود (إِنَّهُ كَانَ صِدّيقاً) ملازماً للصدق في كل ما يأتي ويذر ، أو كثيرَ التصديق لكثرة ما صدّق به غيوبَ الله تعالى وآياتِه وكتبَه ورسلَه ، والجملةُ استئنافٌ مسَوقٌ لتعليل موجبِ الأمر فإن وصفه عليه السلام بذلك من دواعي ذكرِه .

قال ابن عاشور : وصف إبراهيم بالصدّيق لفرط صدقه في امتثال ما يكلفه الله تعالى لا يصده عن ذلك ما قد يكون عذراً للمكلف مثل مبادرته إلى محاولة ذَبح ولده حين أمره الله بذلك في وحي الرؤيا ، فالصدق هنا بمعنى بلوغ نهاية الصفة في الموصوف بها

(**نَّبِيًّا**) المراد هنا أنه منبّأ من جانب الله تعالى بالوحي.

(**إِذْ قَالَ لأَبِيهِ**) آزرَ متلطفاً في الدعوة مستميلاً له .

(**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا**) عاب الوثن من ثلاثة أوجه : **أحدها** : لا يسمع ، **وثانيها** : لا يبصر ، **وثالثها** : لا ينفع ولا يضر .

أي: لم تعبد أصناماً، ناقصة في ذاتها، وفي أفعالها، فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك لعابدها نفعاً ولا ضراً، بل لا تملك لأنفسها شيئاً من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع، فهذا برهان جلي دال على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلاً وشرعاً، ودل بتنبيهه وإشارته، أن الذي يجب ويحسن عبادة من له الكمال، الذي لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالى. (السعدي)

قال أبو السعود : لقد سلك عليه السلام في دعوته أحسنَ منهاجٍ وأقومَ سبيل ، واحتج بحسن أدبٍ وخلقٍ جميل لئلا يركبَ متنَ المكابرة والعناد ولا يُنكّبَ بالكلية عن محَجّة الرشاد ، حيث طَلب منه علةَ عبادتِه لِما يستخفّ به عقلُ كل عاقل من عالم وجاهلٍ ويأبى الركونّ إليه ، فضلاً عن عبادته التي هي الغايةُ القاصية من التعظيم مع أنها لا تحِقّ إلا لمن له الاستغناءُ التامُّ والإنعامُ العام : الخالقِ الرازقِ المحيي المميتِ المثيبِ المعاقب ، ونبّه على أن العاقل يجب أن يفعل كلَّ ما يفعل لداعيةٍ صحيحة وغرضٍ صحيح ، والشيءُ لو كان حياً مميّزاً سميعاً بصيراً قادراً على النفع والضرّ مطيقاً بإيصال الخير والشر لكن كان ممكِناً لاستنكف العقلُ السليمُ عن عبادته ، وإن كان أشرفَ الخلائق لما يراه مِثْلَه في الحاجة والانقيادِ للقدرة القاهرةِ الواجبة ، فما ظنُّك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ليس له من أوصاف الإحياءِ عينٌ ولا أثرٌ .

قال الرازي : ... ووصف الأوثان بصفات ثلاثة كل واحدة منها قادحة في الإلهية وبيان ذلك من وجوه :

أحدها : أن العبادة غاية التعظيم فلا يستحقها إلا من له غاية الإنعام وهو الإله الذي منه أصول النعم وفروعها على ما قررناه في تفسير قوله (وإِنَّ الله رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه) وقال (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم) الآية، وكما يعلم بالضرورة أنه لا يجوز الاشتغال بشكرها ما لم تكن منعمة وجب أن لا يجوز الاشتغال بعبادتها.

وثانيها : أنها إذا لم تسمع ولم تبصر ولم تميز من يطيعها عمن يعصيها فأي فائدة في عبادتها ، وهذا ينبهك على أن الإله يجب أن يكون عالماً بكل المعلومات حتى يكون العبد آمناً من وقوع الغلط للمعبود.

وثالثها : أن الدعاء مخ العبادة فالوثن إذا لم يسمع دعاء الداعي فأي منفعة في عبادته وإذا كانت لا تبصر بتقرب من يقترب إليها فأي منفعة في ذلك التقرب.

ورابعها : أن السامع المبصر الضار النافع أفضل ممن كان عارياً عن كل ذلك ، والإنسان موصوف بهذه الصفات فيكون أفضل وأكمل من الوثن فكيف يليق بالأفضل عبادة الأخس.

وخامسها : إذا كانت لا تنفع ولا تضر فلا يرجى منها منفعة ولا يخاف من ضررها فأي فائدة في عبادتها.

وسادسها : إذا كانت لا تحفظ أنفسها عن الكسر والإفساد على ما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه كسرها وجعلها جذاذاً فأي رجاء للغير فيها .

قال الشنقيطي : وقد بين جل وعلا في مواضع أخر أنه لم يكتف بنهيهم عن عبادة الأوثان وبيان أنها لا تنفع ولا تضر ، بل زاد عل ذلك أنه كسرها وجعلها جذاذاً وترك الكبير من الأصنام ، ولما سألوه هل هو الذي كسرها قال لهم : إن الذي فعل ذلك كبير الأصنام ، وأمرهم بسؤال الأصنام إن كانت تنطق.

كما قال تعالى عنه (وتالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُواْ مَن فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنَآ إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ على أَعْيُنِ الناس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قالوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنَا ياإبراهيم قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ فرجعوا إلى أَنفُسِهِمْ فقالوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظالمون ثُمَّ نُكِسُواْ على رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) .

وقال تعالى (فَرَاغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً باليمين فأقبلوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) .

فقوله (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً باليمين) أي: مال إلى الأصنام يضربها ضرباً بيمينه حتى جعلها جذاذاً، أي قطاعاً متكسرة من قولهم: جذه إذا قطعه وكسره.

وكثيراً ما يستدل على النهي عن عبادة الجمادات بأنها لا تسمع ولا تبصر :

قال الخليل لقومه (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يضرون) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ . إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) .

وقال تعالى (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِين).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) .

(**يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ**) أي : من الوحي والنبوة .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ) .

قال أبو السعود : ولم يسِمْ أباه بالجهل المفرِط وإن كان في أقصاه ولا نفسَه بالعلم الفائق وإن كان كذلك ، بل أبرز نفسه في صورة رفيقٍ له أعرفَ بأحوال ما سلكاه من الطريق .

وقال السعدي : وفي هذا من لطف الخطاب ولينه، ما لا يخفى، فإنه لم يقل: " يا أبت أنا عالم، وأنت جاهل " أو " ليس عندك من العلم شيء " وإنما أتى بصيغة تقتضي أن عندي وعندك علماً، وأن الذي وصل إلي لم يصل إليك ولم يأتك، فينبغي لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها.

(**فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا**) أي : مستقيماً موصلاً إلى أسنى المطالب منجياً عن الضلال المؤدّي إلى مهاوي الردى والمعاطب، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال .

(**يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ**) بطاعتك له وعبادتك الأصنام ، لأن كل من عبد غير الله فقد عبد الشيطان .

كما قال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

قال أبو السعود : فإن عبادتك للأصنام عبادةٌ له إذ هو الذي يسولها لك ويغريك عليها .

(**إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا**) تعليل للنهي عن عبادته ، فالشيطان عظيم العصيان ، مستكبراً عن طاعة ربه ، فمن اتبع خطواته، فقد اتخذه وليا وكان عاصيا لله بمنزلة الشيطان.

وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن، إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتغلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته . (السعدي)

(**يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ**) أي : يصيبك .

(**عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ**) بسبب كفرك وشركك وعصيانك لما آمرك به وأرشدك إليه .

قال ابن عطية : قوله { أخاف أن يمسك } قال الطبري وغيره { أخاف } بمعنى أعلم.

قال القاضي أبو محمد : والظاهر عندي أنه خوف على بابه ، وذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يكن في وقت هذه المقاولة يائساً من إيمان أبيه ، فكان يرجو ذلك وكان يخاف أن لا يؤمن ويتمادى على كفره إلى الموت فيمسه العذاب .

وممن رجح ما رجحه ابن عطية : الرازي ، وأبي حيان ، والواحدي ، والشوكاني ، والآلوسي ، وابن عاشور .

قال الرازي : والأكثرون على أنه محمول على ظاهره ، والقول الأول إنما يصح لو كان إبراهيم عليه السلام عالماً بأن أباه سيموت على ذلك الكفر وذلك لم يثبت فوجب إجراؤه على ظاهره فإنه كان يجوز أن يؤمن فيصير من أهل الثواب ويجوز أن يصر فيموت على الكفر ، فيكون من أهل العقاب ، ومن كان كذلك كان خائفاً لا قاطعاً .

(**فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا**) أي : قرينا ومتابعاً له فيما هو عليه من الكفر والعصيان ومصاحباً له في النار .

الفوائد :

١-أمر الله عز وجل نبيه أن يذكر إبراهيم مع قومه لما فيه من العبر .

٢-علو شأن إبراهيم عليه السلام .

٣-الثناء على إبراهيم بأنه كان صديقاً .

٤-علو منزلة الصدق .

٥-إثبات نبوة إبراهيم .

٦-على الداعية أن يبدأ بأقرب الناس إليه .

٧-على الداعية الرفق واللين في الخطاب مع المدعو .

٨-الهداية بيد الله ، فإبراهيم لم يستطع هداية أبيه .

٩-من وسائل الدعوة الإقناع العقلي؛ حيث إنَّ مثل هذه الوسيلة تجعل المدعو يرجع إلى نفسه ويُعمل عقله وفكره، ويُفكِّر تفكيرًا صحيحًا يقتنع من خلاله بصحة ما دُعي إليه.

١٠-وسيلة الإقناع العقلي استخدمها إبراهيم عليه السلام في عدة مواقف مع قومه، فاستخدمها مع أبيه كما في هذه الآيات، ومع قومه عند تكسيره للأصنام عندما قال لهم: (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) .

كذلك عندما قال لهم (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) .

وفي قصته مع من يعبدون الكواكب، فقال تعالى (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ) .

ومع النمرود في قصته في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ) .

١١-يجب على الداعية ألا يدَّعي أنه يعلم كل شيء ولو كان عالِمًا حقيقة، بل عليه أن يتواضع ويبيّن أنَّ عنده شيئًا من العلم مما آتاه الله إياه، فالتواضع يرفع العبد، ويكتب له قبول الآخرين له.

١٢-يجب أن يُعلم أنَّ الأب مهما بلغ علم ولده ومكانته، فإنه يراه صغيرًا جاهلًا أمام عينيه، فلذا قد تأخذه العزة بالإثم، فلا يستجيب له، فوجب على الولد أن يتلطف معه بقدر الإمكان، وأن يعامله معاملة حسنة مختلفة عن الآخرين، وأن يكرِّر دعوته له، وأن يتواضع له ويلين جانبه، فحق الوالدين عظيم ولو كانوا مشركين.

١٣-الداعية دعوته للآخرين هي من باب الشفقة والرحمة بهم (إني أخاف) فهو لا يرجو من دعوته إلا حب الخير للآخرين، وإنقاذَهم من دركات الشقاء ووحلِ المعاصي والآثام، إلى درجات الجنان والطاعات والخيرات.

(قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)) .

[مريم : ٤٦-٥٠] .

==========

(**قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ**) يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه الله إليه (أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ) أتُعرِضُ -يا إبراهيمُ- عن عبادةِ آلهَتي، وتَتركُها إلى غيرِها .

قال البقاعي : قوله (عن ءالهتي) بإضافتها إلى نفسه فقط ، إشارة إلى مبالغته في تعظيمها .

قال ابن عاشور : قد جاء في جوابه دعوة ابنه بمنتهى الجفاء والعُنجهية بعكسِ ما في كلام إبراهيم من الليّن والرقة ، فدلّ ذلك على أنه كان قاسيَ القلب ، بعيد الفهم ، شديد التصلّب في الكفر.

(**لَئِن لَّمْ تَنتَهِ**) عما أنت فيه ، من شتم آلهتي ، ودعوتي إلى عبادة الله .

(**لأَرْجُمَنَّكَ**) قيل معنى (لَأَرْجُمَنَّكَ) لأشتُمَنَّك.

وممن ذهَب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والزجَّاج، والواحدي، وابنُ كثيرٍ.

قال ابن كثير : فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك .

وقيل: معنى (لَأَرْجُمَنَّكَ) أي: بالحجارةِ.

وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ في الجملةِ: يحيى ابنُ سلام، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور، واستظهَره الشنقيطي. ونصَّ يحيى بنُ سلام، والسعدي، وابنُ عاشور على أنَّ المرادَ: القتلُ بها .

قال الرازي : واعلم أن أصل الرجم هو الرمي بالرجام فحمله عليه أولى .

قال السعدي : (لأرجمنك) أي : قتلاً بالحجارة .

(**وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**) أي :ابعد عني (ملياً) أي زماناً طويلاً لأجل ما صدر منك هذا الكلام .

قال ابن الجوزي (واهجرني مليّاً } فيه قولان.

أحدهما : اهجرني طويلاً ، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، والفرَّاء ، والأكثرون.

قال ابن قتيبة : اهجرني حيناً طويلاً ، ومنه يقال : تَمَلَيّت حبيبك.

والثاني : اجتنبني سالماً قبل أن تصيبَك عقوبتي .

وقال ابن عطية : (ملياً) معناه دهراً طويلاً مأخوذ من الملوين وهما الليل والنهار وهذا قول الجمهور .

قال البقاعي : وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ وتأسية فيما كان يلقى من الأذى ، ويقاسي من قومه من العناء ، ومن عمه أبي لهب من الشدائد والبلايا – بأعظم آبائه وأقربهم به شبهاً .

وقال أبو حيان : وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله ﷺ عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه انتهى.

(**قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ**) أي: قال إبراهيمُ لأبيه: أنتَ في أمانٍ وسَلامةٍ مني، فلا ينالُك مني سوءٌ .

كما قال تعالى في صفةِ المؤمنينَ (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) .

وقال سُبحانَه (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) .

قال ابن عطية : واختلف أهل العلم في معنى تسلميه عليه ، فقال بعضهم هي تحية مفارق وجوزوا تحية الكافر وأن يبدأ بها. وقال الجمهور : ذلك التسليم بمعنى المسالمة لا بمعنى التحية ، قال الطبري معناه أمنة مني لك ، وهذا قول الجمهور وهم لا يرون ابتداء الكافر بالسلام .

وقال القرطبي : والجمهور على أن المراد بسلامه المسالمة التي هي المتاركة لا التحية ؛ قال الطبري : معناه أمنة مني لك.

وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام.

وقال أبو حيان : قال الجمهور : هذا بمعنى المسالمة لا بمعنى التحية ، أي أمنة مني لك وهؤلاء لا يرون ابتداء الكافر بالسلام.

وقال ابن كثير : يعني أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى لحرمة الأبوة .

وقد اختار هذا القول من المفسرين : الطبري ، والواحدي ، والبغوي ، وابن الجوزي ، وابن كثير ، والقاسمي ،

(**سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي**) وعد من إبراهيم لأبيه باستغفاره له .

وقد وفى بذلك الوعد، كما قال تعالى عنه (واغفر لأبي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضآلين) وكما قال تعالى عنه (رَبَّنَا اغفر لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحساب) .

ولكن الله بين له أنه عدو لله تبرا منه ، ولم يستغفر له بعد ذلك ، كما قال تعالى : (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) وقد قال تعالى (وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاه) .

والموعدة المذكورة هي قوله هنا (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربي) .

ولما اقتدى المؤمنون بإبراهيم فاستغفروا لموتاهم المشركين ، واستغفر النَّبي ﷺ لعمه أب طالب – انزل الله فيهم (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانوا أُوْلِي قربى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجحيم) .

ثم قال (وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ) .

وبين في سورة « الممتحنة » أن الاستغفار للمشركين مستثنى من الأسوة بإبراهيم ، والأسوة الاقتداء ، وذلك في قوله تعالى (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ والذين مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآؤاْ مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا) إلى قوله: (إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) الآية ، أي فلا اسوة لكم في إبراهيم في ذلك . (أضواء)

قال ابنُ كثير: وقد استغفر إبراهيمُ لأبيه مدةً طويلةً، وبعد أن هاجرَ إلى الشامِ وبنى المسجِدَ الحرامَ، وبعد أن وُلِدَ له إسماعيلُ وإسحاقُ –عليهما السلامُ– في قَولِه: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ .

وقد استغفر المسلِمونَ لقراباتِهم وأهليهم من المشرِكين في ابتداءِ الإسلامِ؛ وذلك اقتداءً بإبراهيمَ الخليلِ في ذلك، حتى أنزل الله تعالى: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) .

يعني: إلَّا في هذا القَولِ، فلا تتأسَّوا به. ثمَّ بيَّن تعالى أنَّ إبراهيمَ أقلعَ عن ذلك، ورجع عنه .

فقال تعالى (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) .

(**إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا**) كثير البر واللطف بي ، يجيبني إذا دعوته .

(**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**) أي : أتركم وما تعبدون من الأوثان وأرتحل عن دياركم .

قال ابن عاشور : وضمير جماعة المخاطبين عائد إلى أبي إبراهيم وقومه تنزيلاً لهم منزلة الحضور في ذلك المجلس ، لأن أباه واحد منهم وأمرهم سواء ، أو كان هذا المقال جرى بمحضر جماعة منهم.

(**وَأَدْعُو رَبِّي**) أي : وأعبد ربي وحده ، مخلصاً له العبادة والدين .

قال أبو حيان : الأظهر أن قوله (وأدعو ربي) معناه وأعبد ربي كما جاء في الحديث : " الدعاء العبادة " لقوله (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) .

واختاره : الطبري ، والواحدي ، والبغوي ، وابن كثير .وابن عاشور .

قال ابن كثير : (وأدعو ربي) أي : وأعبد ربي وحده لا شريك له .

وقيل : (وأدعو ربي) أدعوه .

وهذا ما ذكره الله في سورة الشعراء (رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين) .

قال الشوكاني : وهذا الذي يساعده السياق والسباق .

(**عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا**) أي : راجياً بسبب إخلاصي العبادة له ، ألا يجعلني شقياً ، وفيه تعريضٌ بشقاوتهم بدعاء آلهتهم ... وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه ، وعبادتهم للأوثان ، وهَجَر الأهل والأوطان ، فلم يتركه الله وحيداً بل وهب له ذرية وعوضه خيراً .

قال ابن كثير: (عسى) هذه مُوجِبةٌ لا محالةَ؛ فإنَّه عليه السلام سيِّدُ الأنبياءِ بعد محمَّدٍ ﷺ .

قال السعدي : وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم، فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجع فيهم المواعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون، أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله.

(**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا**) قال المفسرون: لما هاجر إبراهيم إلى أرض الشام، واعتزل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خيرَ منهم، فوهب له (إسحق) و(يعقوب) أولادا أنبياء، فآنس الله بهما وحشته عن فراق قومه، بأولئك الأولاد الأطهار، ويعقوبُ ابن إسحق، وهما شجرتا الأنبياء، فقد جاء من نسلهما أنبياء بني إسرائيل .

كما قال تعالى (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) .

وقال سُبحانَه (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ) .

وقال عزَّ وجلَّ (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) .

قال ابن الجوزي: قال المفسِّرون: هاجَر عنهم إلى أرضِ الشَّامِ، فوهَب اللهُ له إسحاقَ ويعقوبَ، فآنسَ الله وحَشَته عن فراقِ قَومِه بأولادٍ كرام .

وقال ابن كثير : المعنى جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء ، أقر الله بهم عينه في حياته بالنبوة .

وقال السعدي : ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومألفه وأهله وقومه، من أشق شيء على النفس، لأمور كثيرة معروفة، ومنها انفراده عمن يتعزز بهم ويتكثر، وكان من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه، واعتزل إبراهيم قومه، قال الله في حقه: (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلا) من إسحاق ويعقوب (جَعَلْنَا نَبِيًّا) فحصل له هبة هؤلاء الصالحين المرسلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحيه، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين.

(**وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا**) أي: أعطينا الجميعَ -إبراهيم وإسحق ويعقوب- كل الخير الديني والدنيوي، من المال والولد والعلم والعمل.

كما قال تعالى (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ).

قال ابن الجوزي : (ووهبنا لهم من رحمتنا) قال المفسرون : المال والولد والعِلْم والعمل .

وقال ابن عطية : وقوله (ووهبنا لهم من رحمتنا) يريد العلم والمنزلة والشرف في الدنيا والنعيم في الأخرة ، كل ذلك من رحمة الله .

وقال أبو حيان : والأحسن أن يكون الخير الديني والدنيوي من العلم والمنزلة والشرف في الدنيا والنعيم في الآخرة.

وقال أبو السعود : (وَوَهَبْنَا لَهُمْ مّن رَّحْمَتِنَا) هي النبوةُ، وذكرُها بعد ذكر جعلِهم نبياً للإيذان بأنها من باب الرحمةِ، وقيل: هي المالُ والأولادُ وما بُسط لهم من سَعة الرزقِ، وقيل: هو الكتابُ والأظهر أنها عامةٌ لكل خير ديني ودنيويَ أُوتوه مما لم يُؤتَه أحدٌ من العالمين.

(**وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا**) أي : جعلنا لهم ذكرا حسناً في الناس ، لأن جميع أهل الملل والأديان يثنون عليهم ، لما لهم من الخصال المرضية ، ويُصلون على إبراهيم وعلى إله إلى قيام الساعة .

قال الطبري : أي : رزقناهم الثناء الحسن ، والذكر الجميل في الناس .

قال أبو حيان : ولسان الصدق : الثناء الحسن الباقي عليهم آخر الأبد .

واللسان في القرآن يطلق ثلاث إطلاقات:

الأول: يطلق ويراد به الجارحة.

كما قال تعالى (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ).

الثاني: يطلق ويراد به اللغة.

كما في قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ).

وقوله تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ).

الثالث: يطلق ويراد به الذكر والثناء الحسن.

كما في هذه الآية (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً).

وكما في قوله تعالى (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ).

وفي هذا فضل الهجرة في سبيل الله تعالى .

أولاً: أنه الله يعوضه مراغما وسعة.

قال تعالى (وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً) .

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) هذا تحريض على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن يه.

فمن هاجر في سبيل الله: ويكون في سبيل الله بشرطين: الهجرة لله إخلاصاً لا لهدف آخر، ويكون متابعاً للرسول ﷺ (يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا) قيل: المراغم التحول من أرض إلى أرض، وقيل: متزحزحاً عما يكره.

قال ابن كثير: وهذا تحريض على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه.

وقال السعدي: هذا في بيان الحث على الهجرة والترغيب، وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغمًا في الأرض وسعة، فالمراغم مشتمل على مصالح الدين، والسعة على مصالح الدنيا.

قال ابن كثير: قوله تعالى (مُرَاغَمًا كَثِيرًا) والظاهر – والله أعلم – أنه التمنع الذي يُتحصن به، ويراغم به الأعداء.

وقال القرطبي: وهذا كله تفسير بالمعنى، وكله قريب بعضه من بعض؛ فأما الخاص باللفظة فإن المراغم موضع المراغمة كما ذكرنا، وهو أن يرغِم كل واحد من المتنازعين أنف صاحبه بأن يغلبه على مراده؛ فكأن كفار قريش أرغموا أُنوف المحبوسين بمكة، فلو هاجر منهم مهاجر لأرغم أُنوف قريش لحصوله في منعة منهم، فتلك المنعة هي موضع المراغمة. وقال: وهو مشتق من الرِّغام، ورَغِم أنف فلان أي لَصِق بالتراب، وراغمت فلاناً هجرته وعاديته، ولم أُبالِ إن رغِم أنفه.

وقال الرازي: وعندي فيه وجه آخر، وهو أن يكون المعنى: ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلدته الأصلية، وذلك لأن من فارق وذهب إلى بلدة أجنبية فإذا استقام أمره في تلك البلدة الأجنبية، ووصل ذلك الخبر إلى أهل بلدته خجلوا من سوء معاملتهم معه، ورغمت أنوفهم بسبب ذلك، وحمل اللفظ على هذا أقرب من حمله على ما قالوه، والله أعلم.

ثانياً : أن الله يوسع له خلافاً لمن يظن خلاف ذلك .

لقوله تعالى (وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً) .

(وَسَعَةً) يعني الرزق.

قيل: أي في الرزق، وقال قتادة: المعنى سعة من الضلالة إلى الهدى ومن العَيْلَة إلى الغنى.

وقال مالك: السعة سعة البلاد.

وقال الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبرَ أن من هاجر في سبيله يجد في الأرض مضطرَبًا ومتَّسعًا. وقد يدخل في "السعة"، السعة في الرزق، والغنى من الفقر، ويدخل فيه السعة من ضيق الهمّ والكرب الذي كان فيه أهل الإيمان بالله من المشركين بمكة، وغير ذلك من معاني "السعة"، التي هي بمعنى الرَّوْح والفرَج من مكروهِ ما كره الله للمؤمنين بمقامهم بين ظَهْري المشركين وفي سلطانهم. ولم يضع الله دِلالة على أنه عنى بقوله: "وسعة"، بعض معاني "السعة" التي وصفنا. فكل معاني "السعة" التي هي بمعنى الرَّوح والفرج مما كانوا فيه من ضيق العيش، وغم جِوار أهل الشرك، وضيق الصدر بتعذّر إظهار الإيمان بالله وإخلاص توحيده وفراق الأنداد والآلهة، داخلٌ في ذلك.

وقال الرازي: كأنه قيل: يا أيها الإنسان إنك كنت إنما تكره الهجرة عن وطنك خوفاً من أن تقع في المشقة والمحنة في السفر، فلا تخف فإن الله تعالى يعطيك من النعم الجليلة والمراتب العظيمة في مهاجرتك ما يصير سبباً لرغم أنوف أعدائك، ويكون سبباً لسعة عيشك، وإنما قدم في الآية ذكر رغم الأعداء على ذكر سعة العيش لأن ابتهاج الإنسان الذي يهاجر عن أهله وبلده بسبب شدة ظلمهم عليه بدولته من حيث إنها تصير سبباً لرغم أنوف الأعداء، أشد من ابتهاجه بتلك الدولة من حيث إنها صارت سبباً لسعة العيش عليه.

ثالثاً : أن الله يخلفه.

كما في هذه الآية (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً. وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً).

رابعاً : ينالون رحمة الله.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيم).

قال السعدي : هذه الأعمال الثلاثة، هي عنوان السعادة، وقطب رحى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان من الربح والخسران، فأما الإيمان فلا تسأل عن فضيلته ... ، وأما الهجرة فهي مفارقة المحبوب والمألوف لرضا الله تعالى، فيترك المهاجر وطنه وأمواله وأهله وخلانه تقربًا إلى الله ونصرة لدينة، وأما الجهاد فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين الله وقمع دين الشيطان. وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه أفضل الجزاء. فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجين رحمة الله؛ لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة.

خامساً : تكفير للسيئات ودخول الجنان.

قال تعالى (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأكَفّرَنَّ عَنْهُمْ سَيّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مّن عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ).

سادساً : من فضلها أنّها تدحر الشّيطان الرّجيم، حتّى قرنها النبيّ ﷺ بالإسلام والجهاد في سبيل الله تعالى.

روى الإمام أحمد والنّسائي عن سَبْرَةَ بنِ أبي فَاكِهٍ ﷺ قال: سمعت رسولَ اللهِ ﷺ يقول (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ: فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ؟ فَعَصَاهُ، فَأَسْلَمَ. ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟! فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ. ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجَاهِدُ؟ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ؟! فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ).

الفوائد :

١. حكمة الله العظيمة في عدم إيمان والد إبراهيم .

٢. عظمة الله حيث يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي .

٣. تَسليةٌ لرسولِ اللهِ ﷺ فيما يلقى من الأذى من قومه .

٤. تسلية لكل داعية .

٥. إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء بحكمته .

٦. مُتاركةِ المنصوحِ إذا ظهَر منه اللَّجاجُ .

٧. مقابلةُ الإساءةِ بالإحسانِ .

٨. من هاجر لطَلَبِ رِضا اللهِ عَزَّ وجَلَّ، أكرمَه الله عزَّ وجلَّ في الدُّنيا والآخرةِ .

٩. فضل الهجرة في سبيل الله .

١٠. من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه .

١١. لا يضيع الله جزاء من أحسن عملاً .

١٢. من أعظَمِ نِعَمِ اللهِ على العَبدِ: أن يَرفَعَ له بينَ العالَمينَ ذِكرَه، ويُعلِيَ قَدْرَه؛ ولهذا خَصَّ أنبياءَه ورُسُلَه مِن ذلك بما ليس لِغَيرِهم، كما قال تعالى (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) ، أي: خصَصْناهم بخَصيصةٍ، وهو الذِّكرُ الجَميلُ الذي يُذكَرونَ به في هذه الدَّارِ ، وقال لنبيِّه ﷺ (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) .

١٣. نتيجة الطاعة الرحمة والعز .

١٤. عظم رحمة الله بنبيه إبراهيم .

١٥. ينبغي اعتزال أهل الشرك والكفر .

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)) .

[مريم : ٥١-٥٣] .

==========

(**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى**) لما ذَكَرَ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، عَطَفَ بِذِكْرِ الْكَلِيمِ، فَقَالَ: واذكر يا محمد لقومك في القرآن العظيم خبر موسى الكليم .

قال ابن عطية : هذا أمر من الله عز وجل بذكر (موسى) بن عمران عليه السلام على جهة التشريف .

وقال السعدي : واذكر في هذا القرآن العظيم موسى بن عمران، على وجه التبجيل له والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة .

(**إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا**) قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِكَسْرِ اللَّامِ مِنَ الْإِخْلَاصِ فِي الْعِبَادَةِ ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِفَتْحِهَا بِمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ مُصْطَفًى، كَمَا قَالَ تَعَالَى (إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ) .

فقراءةُ مُخْلَصًا بفتحِ اللَّامِ، أي: إنَّ موسى أخلصَه اللهُ، واختاره لرسالتِه، وجعَلَه نبيًّا مُرسَلًا، خالِصًا مِن الدَّنَسِ .

وقراءةُ مُخْلِصًا بكسرِ اللَّامِ، أي: إنَّ موسى كان يُخلِصُ لله في عبادتِه، ولا يُرائي بأعمالِه أحداً .

قال ابنُ جرير: الصَّوابُ من القول في ذلك عندي: أنَّه كان ﷺ مُخلِصًا عبادةَ الله، مُخلَصًا للرِّسالةِ والنبوَّة .

وقال الرازي : اعلم أنه تعالى وصف موسى عليه السلام بأمور : أحدها : أنه كان مخلصاً فإذا قرئ بفتح اللام فهو من الاصطفاء والاختباء كأن الله تعالى اصطفاه واستخلصه وإذا قرئ بالكسر فمعناه أخلص لله في التوحيد في العبادة والإخلاص هو القصد في العبادة إلى أن يعبد المعبود بها وحده ، ومتى ورد القرآن بقراءتين فكل واحدة منهما ثابت مقطوع به ، فجعل الله تعالى من صفة موسى عليه السلام كلا الأمرين.

وقال السعدي: المعنيان متلازِمان؛ فإنَّ اللهَ أخلصه لإخلاصِه، وإخلاصُه موجِبٌ لاستخلاصِه، وأجَلُّ حالةٍ يُوصَفُ بها العبد: الإخلاصُ منه، والاستخلاصُ مِن رَبّه .

قال ابن عاشور : وخُص موسى بعنوان (المخلص) على الوجهين لأن ذلك مزيته ، فإنه أخلص في الدعوة إلى الله فاستخف بأعظم جبار وهو فرعون ، وجادله مجادلة الأكفاء ، كما حكى الله عنه في قوله تعالى في سورة الشعراء (قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين) إلى قوله : (قال أولو جئتك بشيء مبين) .

وكذلك ما حكاه الله عنه بقوله (قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين) فكان الإخلاص في أداء أمانة الله تعالى ميزته ... ولأن الله اصطفاه لكلامه مباشرة قبل أن يرسل إليه الملك بالوحي، فكان مخلَصاً بذلك، أي مصطفى، لأن ذلك مزيته قال تعالى (واصطنعتك لنفسي) .

(**وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا**) جَمَعَ الله لَهُ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الْكِبَارِ أُولِي الْعَزْمِ الْخَمْسَةِ، وَهُمْ: نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عَلَيْهِمْ وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ أَجْمَعِينَ.

قال ابن عاشور : وعطف نبياً على رسولاً مع أن الرسول بالمعنى الشرعي أخص من النبي ، فلأن الرسول هو المرسلَ بوحي من الله ليبلغ إلى الناس فلا يكون الرسول إلا نبيئاً ، وأما النبي فهو المنبّأ بوحي من الله وإن لم يؤمر بتبليغه ، فإذا لم يؤمر بالتبليغ فهو نبيء وليس رسولاً ، فالجمع بينهما هنا لتأكيد الوصف ، إشارة إلى أن رسالته بلغت مبلغاً قوياً ، فقوله نبيئاً تأكيد لوصف رسولاً.

(**وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا**) أي الجبل الْأَيْمَنِ مِنْ مُوسَى حِينَ ذَهَبَ يَبْتَغِي مِنْ تلك النار جذوة فرآها تَلُوحُ، فَقَصَدَهَا فَوَجَدَهَا فِي جَانِبِ الطُّوْرِ الْأَيْمَنِ مِنْهُ عِنْدَ شَاطِئِ الْوَادِي، فَكَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وناداه وقربه فناجاه.

والمعنى: وكلَّمْنا موسَى بصَوتٍ يَسمَعُه مِن ناحيةِ جَبَلِ طُورِ سَيناءَ الواقِعِ على يمينِ موسى، حينَ أقبَلَ مِن مَدينَ مُتوجِّهًا إلى مِصرَ.

كما قال تعالى (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى) .

(**وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا**) أي: وأدنَيْنا موسى، فسَمِع كلامَ اللهِ، وخاطَبَه عن قُربٍ، بلا واسِطة .

(**وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا**) أي: وآتَينا موسى مِن رَحمتِنا له إجابةَ سُؤالِه، فجعَلْنا أخاه هارونَ نبيًّا مِثلَه؛ لِيُعينَه

قال ابن كثير : أَيْ وَأَجَبْنَا سُؤَالَهُ وَشَفَاعَتَهُ فِي أَخِيهِ، فَجَعَلْنَاهُ نَبِيًّا .

كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى (وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) .

وقال تعالى حكايةً عنه (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى) .

قال ابن عاشور : معنى هبة أخيه له : أن الله عزّزه به وأعانه به ، إذ جعله نبيئاً وأمره أن يرافقه في الدعوة ، لأن في لسان موسى حُبسة ، وكان هارون فصيح اللسان ، فكان يتكلم عن موسى بما يريد إبلاغه ، وكان يستخلفه في مهمات الأمة.

وإنما جعلت تلك الهبة من رحمة الله لأن الله رحم موسى إذ يسّر له أخاً فصيح اللسان ، وأكمله بالإنباء حتى يعلم مراد موسى مما يبلغه عن الله تعالى ... ولم يوصف هارون بأنه رسول إذ لم يرسله الله تعالى ، وإنما جعله مبلّغاً عن موسى ... وأما قوله تعالى (فقولا إنا رسولا ربك) فهو من التغليب .

وقال السعدي : هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه، ونصحه لأخيه هارون، أنه سأل ربه أن يشركه في أمره، وأن يجعله رسولاً مثله، فاستجاب الله له ذلك، ووهب له من رحمته أخاه هارون نبياً. فنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليهما السلام، فساعده على أمره، وأعانه عليه.

الفوائد :

١. الثناء على موسى ورفع ذكره .
٢. من أعظم صفات الإنسان أن يكون عمله خالصاً لله .
٣. أن الإخلاص سبب للاصطفاء والرفعة .
٤. التحذير من الرياء .
٥. إثبات رسالة موسى ونبوته .
٦. إثبات نداء الله لموسى .
٧. إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحا نحوهم. (السعدي)
٨. استجابة الله لطلب موسى بجعل هارون نبياً .
٩. رحمة الله العظيمة .

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)) .

[مريم : ٥٤-٥٥] .

==========

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ) هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم .

قال ابن عطية : وهو أيضاً من لسان الصدق والشرف المضمون بقاؤه على آل إبراهيم عليه السلام .

قال الماوردي : وهو على قول الجمهور : إسماعيل بن إبراهيم. وزعم بعض المفسرين أنه ليس بإسماعيل بن إبراهيم لأن إسماعيل مات قبل إبراهيم ، وإن هذا هو إسماعيل بن حزقيل بعثه الله إل قومه فسلخوا جلدة رأسه ، فخيره الله تعالى فيما شاء من عذابهم فاستعفاه ورضي بثوابه وفوض أمرهم إليه في عفوه أو عقوبته.

(إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) ثناء عليه بهذه الصفة وهي صدق الوعد .

ومما يبين من القرآن شدة صدقه في وعده : أنه وعد أباه بصبره له على ذبحه ثم وفى بهذا الوعد. ومن وفى بوعده في تسليم نفسه للذبح فإن ذلك من أعظم الأدلة على عظيم صدقه في وعده. قال تعالى (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعي قَالَ يا بني إني أرى فِي المنام أَنِّيۤ أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا ترى قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ ستجدني إِن شَآءَ الله مِنَ الصابرين) .

قال ابن عطية : ووصفه الله تعالى ب " صِدق الوعد " لأنه كان مبالغاً في ذلك .

قال ابن الجوزي : قوله تعالى (إنه كان صادق الوعد) هذا عامّ فيما بينه وبين الله ، وفيما بينه وبين الناس.

وقال مجاهد : لم يَعِد ربَّه بوعدٍ قطُّ إلا وفى له به.

فإن قيل : كيف خُصَّ بصدق الوعد إسماعيل ، وليس في الأنبياء من ليس كذلك؟

فالجواب : أن إسماعيل عانى [في الوفاء] بالوعد ما لم يعانه غيره من الأنبياء ، فأُثني عليه بذلك.

وذكر المفسرون : أنه كان بينه وبين رجل ميعاد ، فأقام ينتظره مدة فيها لهم ثلاثة أقوال:

أحدها : أنه أقام حَوْلاً ، قاله ابن عباس.

والثاني : اثنين وعشرين يوماً ، قاله الرقاشي.

والثالث : ثلاثة أيام ، قاله مقاتل.

وقال القرطبي : وخصه الله تعالى بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً له وإكراماً ، كالتلقيب بنحو الحليم والأواه والصدّيق ؛ ولأنه المشهور المتواصف من خصاله.

وقد قيل : إن إسماعيل لم يَعِد شيئاً إلا وَفَّى به ، وهذا قول صحيح ، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية ؛ والله أعلم. (القرطبي)

وقال الرازي : هذا الوعد يمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الله تعالى ويمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الناس.

أما الأول : فهو أن يكون المراد أنه كان لا يخالف شيئاً مما يؤمر به من طاعة ربه وذلك لأن الله تعالى إذا أرسل الملك إلى الأنبياء وأمرهم بتأدية الشرع فلا بد من ظهور وعد منهم يقتضي القيام بذلك ويدل على القيام بسائر ما يخصه من العبادة.

وأما الثاني : فهو أنه عليه السلام كان إذا وعد الناس بشيء أنجز وعده فالله تعالى وصفه بهذا الخلق الشريف وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه وعد صاحباً له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة ، وأيضاً وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى به حيث قال (سَتَجِدُنِي إِن شَاء الله مِنَ الصابرين) .

وقال القاسمي : (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) تعليل للأمر . وإيراده عليه السلام بهذا الوصف ، وإن شاركه فيه بقية الأنبياء ، تشريفاً له وإكراماً . ولأنه المشهور من خصاله . وناهيك أنه وعد من نفسه الصبر على الذبح ، ففوّ به حيث قال (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) ، وهذا أعظم ما يتصور فيه . وفيه تنبيه بعظم هذه الخلة . ولذا كان ضدها نفاقاً ، كما صرّحت به الأخبار .

وقال ابن عاشور : وخصه بوصف صدق الوعد لأنه اشتهر به وتركه خُلقاً في ذريته ، وأعظم وعْدٍ صدقَه وعدُه إياه إبراهيم بأن يجده صابراً على الذبح فقال (ستجدني إن شاء الله من الصابرين) .

قال الشنقيطي : ثناؤه جل ولا في هذه الآية الكريمة على نبيه إسماعيل بصدق الوعد يفهم من دليل خطابه – أعني مفهوم مخالفته – أن إخلاف الوعد مذموم. وهذا المفهوم قد جاء مبيناً في مواضع أخر من كتاب الله تعالى.

كقوله تعالى (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ الله مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ) .

وقوله (يا أيها الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ) إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الحديث (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان) .

(**وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا**) أي : جمع الله له بين الرسالة والنبوة .

قال القرطبي : وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا قيل: أُرسِلَ إسماعيلُ إلى جُرْهُم .

قال ابن كثير: وفي الآية دليل على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق لأنه إنما وُصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة، ومن إسماعيل جاء خاتم المرسلين محمد ﷺ .

(**وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ**) أي كان يحث أهله على طاعة الله، وبخاصة الصلاة التي هي عماد الدين، والزكاة التي بها تتحقق سعادة المجتمع .

قال السعدي : كان مقيما لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فكمل نفسه، وكمل غيره، وخصوصا أخص الناس عنده وهم أهله، لأنهم أحق بدعوته من غيرهم . (السعدي)

فيه أن الإنسان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم .

كما قال تعالى (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين) .

وقال تعالى (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا) .

وقال تعالى (قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً) .

وأيضاً فهم أحق أن يتصدق عليهم فوجب أن يكونوا بالإحسان الديني أولى .

وعن أَبي هريرة ﷺ قَالَ (أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تَمْرَةً مِنْ تَمْر الصَّدَقَةِ فَجَعَلَهَا في فِيهِ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: كَخْ كَخْ إرْم بِهَا، أمَا عَلِمْتَ أنَّا لا نَأكُلُ الصَّدَقَةَ!؟) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وقوله: «كَخْ كَخْ» يقال: بإسكان الخاء، ويقال: بكسرها مَعَ التنوين وهي كلمة زجر للصبي عن المستقذراتِ، وكان الحسن ﷺ صبيًّا.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: سمعت رَسُول الله ﷺ يقول (كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: الإمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ رَاعٍ في أهْلِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمرْأةُ رَاعِيَةٌ في بيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ في مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وعن أَبي حفص عمر بن أَبي سلمة عبد الله بن عبد الأسدِ ربيبِ رَسُول الله ﷺ قَالَ (كُنْتُ غلاَمًا في حجر رَسُول الله ﷺ وَكَانَتْ يَدي تَطِيشُ في الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لي رَسُول الله ﷺ : يَا غُلامُ، سَمِّ الله تَعَالَى، وَكُلْ بيَمِينكَ، وَكُلْ مِمَّا يَليكَ» فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتي بَعْدُ) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ (مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أبْنَاءُ سَبْعِ سِنينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ في المضَاجِعِ) رواه أَبُو داود .

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ. رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ) رواه أبوداود .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا اسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَات) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

(**وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا**) وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه، ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، فرضي الله عنه، ورضي هو عن ربه.

قال الرازي: وهذا نهاية المدح لأن المرضيَّ عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات .

الفوائد :

١. الثناء على إسماعيل .

٢. فضل صدق الوعد .

٣. الحث على هذه الصفة الجميلة .

٤. ذم إخلاف الوعد وهو من صفات المنافقين .

٥. حث الأهل والأقارب على الطاعات كالصلاة والزكاة .

٦. على الإنسان أن يبدأ بأقاربه في الدعوة والتعليم .

٧. وجوب إقام الصلاة .

٨. وجوب إيتاء الزكاة .

٩. في الصلاة إخلاص للمعبود ، وفي الزكاة نفع للمخلوق .

(واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧))

[مريم : ٥٦-٥٧] .

==========

(**واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ**) أي: واتلُ -يا محمَّدُ- في القُرآنِ على قَومِك خبَرَ إدريسَ عليه السلام .

(**إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا**) أي: إنَّ إدريسَ كان كثيرَ الصِّدقِ في أفعالِه وأقوالِه، صادِقًا فيما يخبِرُ به عن اللهِ، ومُصَدِّقًا تصديقًا تامًّا بما أتاه من الحَقِّ، ونبيًّا رفيعَ القَدرِ يُوحي اللهُ إليه .

(**وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا**) ي: ورفَعْنا إدريسَ إلى مكانٍ ذي علوٍّ وارتفاعٍ؛ إلى السَّماءِ الرَّابعةِ .

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال (... ثم عُرِج بنا إلى السَّماءِ الرَّابعةِ، فاستفْتَح جبريلُ عليه السلام، قِيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: محمَّدٌ، قال: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه، فَفُتِح لنا فإذا أنا بإدريسَ، فرَحَّب ودعا لي بخيرٍ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ :وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) متفق عليه .

قال ابن جزي : قوله (وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً) في حديث الإسراء : وإنه في السماء الرابعـة ، وقيل : يعني رفعة النبوة وتشريف منزلته والأول أشهر .

وقال الخازن : قوله تعالى (ورفعناه مكاناً علياً) قيل هي الرفعة بعلو المرتبة في الدنيا ، وقيل إنه رفع إلى السماء ، وهو الأصح يدل عليه ما روى أنس بن مالك بن صعصعة " عن النبيّ ﷺ (أنه رأى إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج) . متفق عليه

وقيل : المراد رفعة النبوة وتشريف منزلته .

قال السعدي : (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) أي: رفع الله ذكره في العالمين، ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة.

وقال الآلوسي مرجحاً هذا القول : وهذا الرفع لاقتضائه علو الشأن ورفعة القدر كان فيه من المدح ما فيه وإلا فمجرد الرفع إلى مكان عال حسا ليس بشيء : فالنار يعلوها الدخان وربما... يعلو الغبار عمائم الفرسان .

ولا مانع من القولين .

الفوائد :

١. الثناء على إدريس عليه السلام .

٢. فضل الصدق وعلو منزلته .

٣. أن الله إذا أثنى على شخص بصفة من الصفات يريد منا أن نقتدي به فيها .

٤. أن الله يثني على أنبيائه بأعمالهم وتقربهم إلى الله .

٥. التحذير من الكذب .

٦. إثبات نبوة إدريس .

٧. أن الله رفعة بالنبوة والشرف ، ورآه النبي ﷺ ليلة المعراج في السماء الرابعة .

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)) .

[مريم : ٥٨] .

==========

(**أُوْلَئِكَ**) اسم الإشارة في قوله (أُولئِكَ ...) يعود إلى الأنبياء المذكورين في هذه السورة. وهم عشرة أولهم في الذكر زكريا وآخرهم إدريس.

(**الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ**) أي : بفنون النعم الدينية والدنيوية .

قال السعدي : أي أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق، ومنة لا تسبق، من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعمت عليهم .

(**مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ**) أي : هم من نسل آدم كإدريس .

(**وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ**) كإبراهيم فإنه من ذرية سام بن نوح .

(**وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ**) كإسماعيل ثم إسحق ويعقوب .

(**وَإِسْرَائِيلَ**) أي : ومن ذرية إسرائيل وهو " يعقوب " كموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى .

قال القرطبي : فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم ، ولإبراهيم شرف القرب من نوح ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب شرف القرب من إبراهيم.

(**وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا**) أي : ومن جملة من أنعم الله عليهم، أولئك الذين هديناهم إلى طريق الحق واجتبيناهم واخترناهم لحمل رسالتنا ووحينا.

(**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا**) أي : أولئك الذين أنعم الله تعالى عليهم، من صفاتهم أنهم إذا تتلى عليهم آيات الرحمن، المتضمنة لتمجيده وتعظيمه وحججه خروا على جباههم ساجدين وباكين. وسقطوا خاضعين خاشعين خوفاً ورجاءً، وتعظيماً وتمجيداً لله رب العالمين.

وجمع سبحانه بين السجود والبكاء بالنسبة لهم، للإشعار بأنهم مع تعظيمهم الشديد لمقام ربهم، فهم أصحاب قلوب رقيقة، وعواطف جياشة بالخوف من الله تعالى.

قال ابن كثير : أَيْ إِذَا سَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ الْمُتَضَمِّنَ حُجَجَهُ وَدَلَائِلَهُ وَبَرَاهِينَهُ، سَجَدُوا لِرَبِّهِمْ خُضُوعًا وَاسْتِكَانَةً وَحَمْدًا وَشُكْرًا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ، وَالْبُكِيُّ جَمْعُ بَاكٍ، فَلِهَذَا أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى شَرْعِيَّةِ السُّجُودِ هَاهُنَا اقْتِدَاءً بِهِمْ وَاتِّبَاعًا لِمِنْوَالِهِمْ .

فيه فضل البكاء عند سماع آيات الله .

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً . وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) .

وقال تعالى (وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ).

فهذه الآيات الكريمة تدل على أن من صفات المؤمنين الصادقين، أنهم يتأثرون تأثرا عظيما عند سماعهم لكلام الله تعالى، تأثرا يجعلهم يبكون ويسجدون وتقشعر جلودهم، وتوجل قلوبهم، وتلين نفوسهم.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ، قَالَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ قَالَ «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً) رَفَعْتُ رَأْسِي أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ) متفق عليه.

فائدة : ١

فضل البكاء من خشية الله :

هو من صفات الأنبياء .

كما في الآيات السابقة (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) .

وهو دليل الإيمان.

كما قال تعالى (... وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُون) .

والبكاء مع ذكر الله في الخلوة سبب لإظلال الله العبد .

قال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله ... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) .

وهو من أسباب النجاة من النار .

قال ﷺ (لن يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله) رواه الترمذي.

والبكاء من خشية الله سمة من سمات الصحابة.

عن العِرباضِ بنِ سَارية ﷺ قَالَ (وَعَظَنَا رسولُ اللهِ ﷺ مَوعظةً بَليغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رسولَ اللهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا، قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ...) .

ولحديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين) متفق عليه.

أمثلة على بكاء الصحابة:

ثبت في ترجمة عمر بن الخطاب أنه كان في وجهه خطان أسودان.

وكان عثمان إذا وقف على قبر يبكي حتى تبتل لحيته من البكاء.

ثبت عن ابن عمر أنه ما قرأ قول الله (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) إلا بكى حتى يغلبه البكاء.

قال أبو سليمان الداراني: لكل شيء علم، وعلم الخذلان ترك البكاء من خشية الله .

فائدة : ٢

قال القرطبي: وهذه أحوال العلماء يبكون ولا يصعقون، ويسألون ولا يصيحون، ويتحازنون ولا يتموّتون؛ كما قال تعالى (الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله) وقال: {إِنَّمَا المؤمنون الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ).

فائدة : ٣

فضل رقة القلب ووجله .

قال ابن رجب رحمه الله: هذان الوصفان بهما مدح الله المؤمنين عند سماع الذكر.

كما قال تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً).

وقال سبحانه (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق).

وقال تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله).

وقال تعالى (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق).

فائدة : ٤

علامات رقة ولين القلب.

أولاً: الإكثار من ذكر الله.

قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ).

قال رجل للحسن، يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أذبه بذكر الله.

قال بعض السلف: دواء القلب من خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين.

ثانياً: العطف على المسكين.

فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو قسوة قلبه؟ فقال له الرسول ﷺ (إذا أحببت أن يلين قلبك فامسح راس اليتيم وأطعم المسكين) رواه أحمد.

ثالثاً: زيارة المقابر.

قال ﷺ (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة، وترق القلب) رواه أحمد.

إذا قسا القلب قحطت العين.

رابعاً: كثرة ذكر الموت.

ولذلك قال ﷺ (أكثروا من ذكر هاذم اللذات) رواه الترمذي.

لما في ذلك من رقة القلب، ونشاط العبادة، وتعجيل التوبة، والإقلاع عن المعاصي.

قال سعيد بن جبير: لو فارق الموت ذكر قلبي لفسد.

خامساً: أكل الحلال.

قال الفضيل: من عرف ما يدخل جوفه كتب عند الله صديقاً.

وقال سهل التستري: من أكل الحلال أطاع الله شاء أم أبى، ومن أكل الحرام عصى الله شاء أم أبى.

سادساً: الدعاء بسلامة القلب.

كان ﷺ يقول (اللهم إني أسألك قلباً سليماً ..) رواه أحمد.

سابعاً: الاستجابة لأمر الله ورسوله.

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه).

فائدة : ٥

التحذير من قسوة القلب.

قال تعالى: (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله).

قال بعض السلف: خصلتنا تقسيان القلب: كثرة الكلام، وكثرة الأكل.

قال ابن القيم: مفسدات القلب: كثرة النوم، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام.

وقال بعضهم: البدن إذا عري رق، وكذلك القلب إذا قلت خطاياه أسرعت دمعته.

قال ابن القيم: ما ضربَ عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله.

خلقت النار لإذابة القلوب القاسية.

أبعد القلوب من الله القلب القاسي.

إذا قسا القلب قحطت العين.

قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل والنوم والكلام والمخالطة.

كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجح فيه المواعظ.

فائدة : ٦

قال القرطبي : في هذه الآية دلالة على أن لآيات الرحمن تأثيراً في القلوب.

فائدة : ٧

أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى شَرْعِيَّةِ السُّجُودِ هَاهُنَا اقْتِدَاءً بِهِمْ وَاتِّبَاعًا لِمِنْوَالِهِمْ . (ابن كثير) .

(فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩)) .

[مريم : ٥٩] .

==========

(فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ...) لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حِزْبَ السُّعَدَاءِ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْقَائِمِيْنَ بِحُدُودِ اللَّهِ وَأَوَامِرِهِ، الْمُؤَدِّيْنَ فَرَائِضَ اللَّهِ التاركين لزواجره، ذكر أنه فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَيْ قُرُونٌ أُخَرُ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَإِذَا أَضَاعُوهَا فَهُمْ لِمَا سِوَاهَا مِنَ الْوَاجِبَاتِ أَضْيَعُ، لِأَنَّهَا عِمَادُ الدِّينِ وَقَوَامُهُ وَخَيْرُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَمَلَاذِّهَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا، فَهَؤُلَاءِ سَيَلْقَوْنَ غَيًّا، أَيْ خَسَارًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

فائدة : ١

قوله (**خَلْفٌ**) الخَلْفُ: الرَّدِيءُ مِن الناسِ ومِن الكلامِ، والرَّديءُ مِن كلِّ شيءٍ، وأكثرُ ما يُستعمَلُ باللامِ الساكنةِ (خَلْفٌ) في الذمِّ، وبالفتحِ (خَلَف) في المدحِ، وأصلُه: مجيءُ شيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَه .

قال ابن عطية : لخَلف " بفتح اللام القرن يأتي بعد آخر يمضي ، والابن بعد الأب ، وقد يستعمل في سائر الأمور. " والخلْف " بسكون اللام مستعمل إذا كان الآتي مذموماً هذا مشهور كلام العرب .

وقال ابن عاشور : والخلْف بسكون اللام عقب السُوء ، وبفتح اللام عقب الخير.

فائدة : ٢

اختلف العلماء في المراد بهؤلاء (الخلْف) على أقوال :

قيل : هم اليهود .

واختاره الزمخشري ، والنسفي .

وقيل : اليهود والنصارى .

واختاره أبو حيان ، والسمرقندي .

وقيل : أن المراد بالخلْف كل من كفر وعصى من بعد إسرائيل وأضاع الصلاة واتبع الشهوات .

واختاره ابن عطية ، والآلوسي ، وابن عاشور ، والشنقيطي .

قال الشنقيطي : الظاهِرُ أنَّهم اليهودُ والنَّصارى وغيرُهم مِن الكُفَّارِ الذين خَلَفوا أنبياءَهم وصالحيهم قبلَ نزولِ الآيةِ، فأضاعوا الصَّلاةَ، واتَّبَعوا الشهواتِ، وعلى كُلِّ حالٍ فالعبرةُ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّبَبِ؛ فكُلُّ خَلْفٍ أضاعوا الصلاةَ واتَّبَعوا الشهواتِ يَدخُلونَ في الذمِّ والوعيدِ المذكورِ في هذه الآيةِ .

فائدة : ٣

اختلفوا في معنى (أضاعوا الصلاة) على أقوال :

قيل : تركها بالكلية .

واختاره : الطبري ، والزجاج، والثعلبي، والواحدي، والرازي، والخازن .

وقيل : تأخيرها عن وقتها .

واختاره : أبو حيان ، والسمرقندي ، والماوردي ، والواحدي .

وممن قال بنحو هذا القولِ مِن السلفِ: عبد الله بنُ مسعود، والنَّخَعيُّ، وسعيدُ بنُ المسيب، وعمرُ بنُ عبد العزيز .

وقيل : إن لفظ الإضاعة يشمل كل ذلك ، فمن تركها أو أخرها عن وقتها أو أخل بأركانها وشروطها وواجباتها فقط ضيعها .

واختاره : ابن القيم ، والشوكاني ، والشنقيطي .

قال الشنقيطي: اختلف أهلُ العِلمِ في المرادِ بإضاعتِهم الصَّلاةَ، فقال بعضُهم: المرادُ بإضاعتِها: تأخيرُها عن وَقتِها... وقال بعضُهم: إضاعتُها: الإخلالُ بشُروطِها... وقال بعضُهم: المرادُ بإضاعتِها: جَحدُ وجوبِها... وقيل: إضاعتُها: إقامتُها في غيرِ الجَماعاتِ. وقيل: إضاعتُها: تعطيلُ المساجِدِ، والاشتِغالُ بالصَّنائعِ والأسبابِ... وكلُّ هذه الأقوالِ تدخُلُ في الآيةِ؛ لأنَّ تأخيرَها عن وَقتِها، وعدمَ إقامتِها في الجماعةِ، والإخلالَ بشُروطِها، وجَحْدَ وجوبِها، وتعطيلَ المساجِدِ منها: كُلُّ ذلك إضاعةٌ لها، وإن كانت أنواعُ الإضاعةِ تتفاوتُ .

وقال الشوكاني : والظَّاهِرُ أنَّ مَن أخَّر الصَّلاةَ عن وَقْتِها، أو تَرَك فرضًا مِن فروضِها، أو شرطًا مِن شروطِها، أو ركنًا مِن أركانِها فقد أضاعَها، ويدخلُ تحتَ الإضاعةِ مَن تَرَكها بالمرَّةِ أو جَحَدها دُخولًا أَوَّلِيًّا .

فائدة : ٤

قوله تعالى (**وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ**) أي: وأقبلوا على شَهَواتِ أنفُسِهم، واهْمَكوا في تحقيقِ رَغَباتِها الدُّنيويَّةِ، وآثَروها على طاعةِ اللهِ . كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

وقال سُبحانَه (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) .

وقال عزَّ وجلَّ (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) .

قال أبو حيان : و(الشهوات) عام في كل مشتهى يشغل عن الصلاة وذكر الله.

قال ابنُ تيمية: قولُه: وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ يتناولُ كُلَّ مَن استعمَلَ ما يشتهيه عن المحافظةِ عليها في وَقتِها، سواءٌ كان المشتَهى من جنسِ المحرَّماتِ؛ كالمأكولِ المحَرَّمِ، والمشروبِ المحَرَّمِ، والمنكوحِ المحَرَّمِ، والمسموعِ المحَرَّمِ؛ أو كان مِن جنسِ المباحاتِ لكِنَّ الإسرافَ فيه يُنهَى عنه؛ أو غيرَ ذلك. فمن اشتغل عن فِعلِها في الوَقتِ بلعبٍ، أو لهوٍ، أو حديثٍ مع أصحابِه، أو تنَزُّهٍ في بُستانِه، أو عِمارةِ عَقارِه، أو سعيٍ في تجارتِه، أو غيرِ ذلك- فقد أضاع تلك الصَّلاةَ، واتَّبَع ما يشتهيه).

فائدة : ٥

قوله تعالى (**فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**) أي عذاباً وشراً عظيماً .

قال ابن الجوزي : وفي المراد بهذا الغيّ ستة أقوال.

أحدها : أنه وادٍ في جهنم ، والثاني : أنه نهر في جهنم ، قاله ابن مسعود ، والثالث : أنه الخسران ، والرابع : أنه العذاب ، قاله مجاهد ، والخامس : أنه الشرُّ ، والسادس : أن المعنى : فسوف يلقون مجازاة الغي ، كقوله (يلقَ أثاماً) .

فائدة : ٦

الوعيد لمن ضيع الصلاة .

كما قال تعالى (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الذين هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ الذين هُمْ يُرَآءُونَ وَيَمْنَعُونَ الماعون) .

وقوله في ذم المنافقين (وَإِذَا قاموا إِلَى الصلاة قَامُواْ كسالى يُرَآءُونَ الناس وَلاَ يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ قَلِيلاً) .

وقوله فيهم أيضاً (وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصلاة إِلاَّ وَهُمْ كسالى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ) .

فائدة : ٧

ذم وتهديد من يتبع الشهوات :

قال تعالى (والذين كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنعام والنار مَثْوًى لَّهُمْ) .

وقال تعالى (ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) .

فائدة : ٨

عواقب اتباع الشهوة :

أولاً: مرض القلب:

ومرض القلوب نوعان مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغي وكلاهما في القرآن.

قال تعالى في مرض الشبهة (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) .

وأما مرض الشهوات فقال تعالى (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) فهذا مرض شهوة الزنا (زاد المعاد).

الأسير هو أسير شهوته وهواه، ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكن منه عدوه وسامه سوء العذاب وصار كعصفور في كف طفل يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب. (روضة المحبين).

ثانياً: الضلال عن الحق بسبب سكر الشهوة.

قال تعالى في قوم لوط (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون).

وهذا السكر أشد من سكر الخمر، فإن سكر الخمر يكون يوما أو قريبا من يوم، وأما سكر الشهوة والمحبة الفاسدة فقوي دائم، وقد يصل إلى الجنون. (قاعدة في المحبة).

ثالثاً: الشهوة بريد الكفر والخروج عن الدين.

فإن الشهوة خطوة من خطوات الشيطان التي يتدرج بالعبد عن طريقها حتى يفسد عليه دينه وقد يخرجه منه.

قال عدي ابن ثابت كان في زمن بني إسرائيل راهب يعبد الله حتى كان يؤتى بالمجانين يعوذهم فيبرأون على يديه وإنه أتي بامرأة ذات شرف من قومها قد جنت وكان لها إخوة فأتوه بها فلم يزل الشيطان يزين له حتى وقع عليها فحملت فلما استبان حملها لم يزل يخوفه ويزين له قتلها حتى قتلها ودفنها فذهب الشيطان في صورة رجل حتى أتى بعض إخوتها فأخبره بالذي فعل الراهب ثم أتى بقية إخوتها رجلاً رجلاً فجعل الرجل يلقى أخاه فيقول والله لقد أتاني آت فذكر لي شيئاً كبر علي ذكره فذكر ذلك بعضهم لبعض حتى رفعوا ذلك إلى ملكهم فسار الناس إليه حتى استنزلوه من صومعته فأقر لهم بالذي فعل فأمر به فصلب فلما رفع على الخشبة تمثل له الشيطان فقال أنا الذي زينت لك هذا وألقيتك فيه فهل أنت مطيعي فيما أقول لك وأخلصك قال نعم قال تسجد لي سجدة واحدة فسجد له وقتل الرجل فهو قول الله تعالى كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين. (روضة المحبين).

رابعاً: الحجب عن الرب جل وعلا.

فإن العبد إذا قدم شهوته على مراد ربه عرض نفسه للحجب والجفاء بينه وبين ربه، فإن أراد الله خذلانه وكله إلى شهوته وتركه محجوباً عنه، وإن أراد الله عصمته نغص عليه الشهوة وحال بينه وبين اللذة المحرمة حتى لا تكون حجاباً بينه وبينه. (مدارج السالكين)

خامساً: إدمان الشهوة وتعلق القلب بها.

مدمنو الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها.

ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ به عشر معشار التذاذ من يفعله في بعض الأحيان. (روضة المحبين).

سادساً: الغفلة عن ذكر الله والصلاة.

لأن العبد إذا قهر شهوته وهواه قوي قلبه على الصلاة والخشوع فيها، وهذا بخلاف من قهرته الشهوة وأسره الهوى ووجد الشيطان فيه مقعداً فإنه لا يمكن أن يتخلص من الوساوس والأفكار. (الوابل الصيب)

سابعاً: الشقاء والحسرة في الدنيا.

فيا حسرة المحب الذي باع نفسه لغير الحبيب الأول بثمن بخس وشهوة عاجلة ذهبت لذتها وبقيت تبعتها. (إغاثة اللهفان)

ثامناً: العقوبة عند الموت.

شهوات الدنيا في القلب كشهوات الأطعمة في المعدة، وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا انتهت إلى غايتها. (عدة الصابرين)

تاسعاً: العقوبة في البرزخ.

ففي حديث سمرة بن جندب الذي في صحيح البخاري (أن النبي ﷺ قال رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني فانطلقت معهما فإذا بيت مبني على مثل بناء التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار فيه رجال ونساء عراة فإذا أوقدت النار ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا فإذا أخمدت رجعوا فيها فقلت من هؤلاء قال هم الزناة) الجزاء من جنس العمل، فهؤلاء كانوا في الدنيا كلما هموا بالتوبة والإقلاع والخروج من تنور الشهوة إلى فضاء التوبة عادوا إليه فكان هذا عذابهم في تنور الآخرة. (روضة المحبين).

عاشراً: العذاب في النار.

قال ﷺ (حُجِبَتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ، وَحُجِبَتِ الجَنَّةُ بِالمكَارِهِ) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وقال تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً).

قال بعض العلماء: إذا علا الذكر الذكر هربت الملائكة، وعجت الأرض إلى ربها، ونزل سخط الجبار جل جلاله عليهم، وغشيتهم اللعنة، وحفت بهم الشياطين، واستأذنت الأرض ربها أن تخسف بهم، وثقل العرش على حملته، وكبرت الملائكة، واستعرت الجحيم، فإذا جاءته رسل الله لقبض روحه، نقلوها إلى ديار إخوانهم وموضع عذابهم فكانت روحه بين أرواحهم وذلك أضيق مكانا وأعظم عذابا من تنور الزناة. (روضة المحبين)

ذهبت اللذات، وأعقبت الحسرات، تمتعوا قليلاً وعذبوا طويلاً، أسكرتهم خمرة تلك الشهوات فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين، فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم، وهم بين أطباق الجحيم، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم، ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون: ذوقوا ما كنتم تكسبون، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون. (الجواب الكافي)

(إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣)) .

[مريم : ٦٠-٦٣] .

==========

(**إِلاَّ مَن تَابَ**) أي : من تضييع الصلاة واتباع الشهوات ، فرجع إلى طاعة ربه.

(**وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**) أي: إلَّا الذين تابوا عن إضاعةِ الصَّلواتِ، واتِّباعِ الشَّهَواتِ، وآمنوا باللهِ وما جاءت به رسُلُه، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ المشروعةَ بإخلاصٍ لله، فأدَّوا فرائِضَه، واجتَنَبوا محارِمَه؛ فأولئك يدخُلونَ الجنَّةَ، ويَنجُونَ مِن النَّار .

والعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون خالصاً لله، قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى) متفق عليه.

الشرط الثاني: أن يكون متابعاً للنبي ﷺ لقوله ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

فمن عمل عملاً أشرك به مع الله غيره ولو يسير الرياء كان عمله غير صالح، ومن أخلص لله لكن على غير شريعة رسول الله ﷺ كان عمله غير صالح.

ودائماً يقرن الله العمل بالصالح، لأنه ليس كل عمل يقبل إلا إذا كان صالحاً.

قال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...).

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ...).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً).

قال السعدي: ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته.

(**فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ**) التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم .

أن الإيمان والعمل الصالح سبب لدخول الجنة، وقد جاء في آيات كثيرة.

قال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

وقال تعالى (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ).

وقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

(**وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا**) من أعمالهم، بل يجدونها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفا عددها.

فلا ينقص من ثوابهم شيئاً، ولا يزاد في عذابهم، ولا يعاقبون بجريرة غيرهم.

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً).

وقال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ).

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً).

ظلماً: أي: زيادة في السيئات (ولا هضماً) أي نقصاً في الحسنات.

(**جَنَّاتِ عَدْنٍ**) أي : جنات إقامة .

قال الرازي : والعدن الإقامة وصفها بالدوام على خلاف حال الجنان في الدنيا التي لا تدوم ولذلك فإن حالها لا يتغير في مناظرها فليست كجنان الدنيا التي حالها يختلف في خضرة الورق وظهور النور والثمر .

وقال السعدي : ... ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي جنات عدن، أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها، ولا حول ولا زوال، وذلك لسعتها، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والحبور.

(**الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ**) قد وعد الرَّحمنُ عِبادَه المؤمنينَ أن يَدخُلوها في الآخرةِ، فآمنوا بذلك، والحالُ أنَّهم لم يَرَوها في الدُّنيا .

قال الرازي : قوله (بالغيب) ففيه وجهان : أحدهما : أنه تعالى وعدهم إياها وهي غائبة عنهم غير حاضرة أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها.

والثاني : أن المراد وعد الرحمن للذين يكونون عباداً بالغيب أي الذين يعبدونه في السر بخلاف المنافقين فإنهم يعبدونه في الظاهر ولا يعبدونه في السر وهو قول أبي مسلم.

والوجه الأول : أقوى لأنه تعالى بين أن الوعد منه تعالى وإن كان بأمر غائب فهو كأنه مشاهد حاصل ، لذلك قال بعده (إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً) .

قال ابن عطية : (بالغيب) أي : أخبرهم من ذلك بما غاب عنهم ، وفي هذا مدح لهم عن سرعة إيمانهم وبدراهم إذ لم يعاينوا.

وقال ابن الجوزي : (بالغيب) أي : وعدهم بها ، ولم يَرَوْها ، فهي غائبة عنهم.

وقال السعدي : وقوله (بِالْغَيْبِ) يحتمل أن تكون متعلقة ب {وَعَدَ الرَّحْمَنُ} فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعداً غائباً، لم يشاهدوه ولم يروه فآمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسعوا لها سعيها، مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكانوا أشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيا، ويكون في هذا، مدح له بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع.

ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه، لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حباً، وأجل شوقاً .

ويحتمل أيضا، أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدركها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المجمل، ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} والمعاني كلها صحيحة ثابتة، **ولكن الاحتمال الأول أولى** .

قال السعدي : أضافها إلى اسمه {الرَّحْمَنُ} لأن فيها من الرحمة والإحسان، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وسماها تعالى رحمته، فقال (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وأيضاً ففي إضافتها إلى رحمته، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحمته، التي هي أثرها وموجبها، والعباد في هذه الآية، المراد: عباد إلهيته، الذين عبدوه، والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفاً لهم كقوله: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ} ونحوه، بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه، فهؤلاء وإن كانوا عبيداً لربوبيته، لأنه خلقهم ورزقهم، ودبرهم، فليسوا داخلين في عبيد إلهيته العبودية الاختيارية، التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار، لا مدح لهم فيها.

(**إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا**) أي : أنهم لا بد أن يأتون ما وعدوا به .

لأنه جل وعلا لا يخلف الميعاد .

كقوله (وَعْدَ الله لاَ يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ) وقوله (إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ الميعاد) وقوله (رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القيامة إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الميعاد فاستجاب لَهُمْ رَبُّهُمْ) وقوله تعالى (إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ إِذَا يتلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً) .

(**لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا**) أي : كلاماً تافهاً ساقطاً كما يسمع في الدنيا. واللغو : هو فضول الكلام ، وما لا طائل تحته. ويدخل فيه فحش الكلام وباطله .

كما قال تعالى (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) .

وقال تعالى (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا) .

قال القرطبي : واللغو معناه الباطل من الكلام والفحش منه والفضول وما لا ينتفع به، ومنه الحديث : "إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت" .

(**إِلاَّ سَلاَمًا**) استثناء منقطع ، أي لكن يسمعون فيها سلاماً ، لأنهم يسلم بعضهم على بعض ، وتسلم عليهم الملائكة .
أي: أَنَّ تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ سَلَامٌ، أَيْ يُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِذَلِكَ، وَيُسَلِّمُونَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَتُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ.
وَقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى هَذَا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ، وَقَوْلِهِ (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)، وَقَوْلِهِ (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا الْآيَةَ) وَقَوْلِهِ (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا). وَقَوْلِهِ (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.
قال ابن القيم: ... فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه ، وهي دار الله ، واسمه سبحانه وتعالى السلام ، الذي سلمها وسلم أهلها ، وتحيتهم فيها سلام ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم ، والرب تعالى يسلم عليهم من فوقهم كما قال تعالى (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولاً من رب رحيم).
(**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**) أَيْ : فِي مِثْلِ وَقْتِ البُكُرَاتِ وَوَقْتِ العَشِيَّاتِ لا أن هناك ليلا ونهارا، وَلَكِنَّهُمْ فِي أَوْقَاتٍ تَتَعَاقَبُ يَعْرِفُونَ مُضِيَّهَا بِأَضْوَاءٍ وَأَنْوَارٍ . (ابن كثير) .
قال ابن الجوزي : قوله تعالى (ولهم رزقهم فيها بُكْرة وعَشِيّاً) قال المفسرون : ليس في الجنة بُكْرة ولا عشيَّة ، ولكنَّهم يُؤتَوْن برزقهم على مقدار ما كانوا يعرفون في الغداة والعشي.
قال الحسن : كانت العرب لا تعرف شيئاً من العيش أفضل من الغداء والعشاء ، فذكر الله لهم ذلك.
وقال القرطبي : (وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً) أي : لهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرة وعشياً ؛ أي في قدر هذين الوقتين ؛ إذ لا بكرة ثَمَّ ولا عشياً ؛ كقوله تعالى (غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) أي قدر شهر .
وقال ابن جزي : (بُكْرَةً وَعَشِيّاً) **قيل** : المعنى أن زمانهم يقدر بالأيام والليالي ، إذ ليس في الجنة نهار ولا ليل ، **وقيل** : المعنى أن الرزق يأتيهم في كل حين يحتاجون إليه ، وعبر عن ذلك بالبُكرة والعشي على عادة الناس في أكلهم .
قال الشنقيطي : في هذه الآية الكريمة (وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً) فيه سؤال معروف ، وهو أن يقال : ما وجه ذكر البكرة والعشين مع أن الجنة ضياء دائم ولا ليل فيها.
وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة :
الأول : أن المراد بالبكرة والعشي قدر ذلك من الزمن ، كقول (غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) أي قدر شهر.
الجواب الثاني : أن العرب كانت في زمنها ترى أن من وجد غداءً وعشاءً فذلك الناعم ، فنزلت الآية مرغبة لهم وإن كان ما في الجنة أكثر من ذلك.
الجواب الثالث : أن العرب تعبر عن الدوام بالبكرة والعشي، والمساء والصباح، كما يقول الرجل : أنا عند فلان صباحاً ومساءً، وبكرة وعشياً. يريد الديمومة ولا يقصد الوقتين المعلومين.
(**تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا**) أي: هذه الجَنَّةُ العاليةُ القَدرِ التي وصَفْنا بهذه الصِّفاتِ العظيمةِ نُنْزِلُها ونُعْطيها مَن كان مِن عبادِنا مُتَّقِيًا لعذابِ اللهِ، بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه .
قال الشنقيطي : وَقَدْ بَيَّنَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ يُورِثُ الْمُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ جَنَّتَهُ ، وَقَدْ بَيَّنَ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ -إِلَى قَوْلِهِ- أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

وَقَوْلِهِ تعالى (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

وَمَعْنَى إِيرَاثِهِمُ الْجَنَّةَ : الْإِنْعَامُ عَلَيْهِمْ بِالْخُلُودِ فِيهَا فِي أَكْمَلِ نَعِيمٍ وَسُرُورٍ .

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي (الْكَشَّافِ) نُورِثُ أَيْ: نُبْقِي عَلَيْهِ الْجَنَّةَ كَمَا نُبْقِي عَلَى الْوَارِثِ مَالَ الْمَوْرُوثِ، وَلِأَنَّ الْأَتْقِيَاءَ يَلْقَوْنَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَدِ انْقَضَتْ أَعْمَالُهُمْ، وَثَمَرَتُهَا بَاقِيَةٌ وَهِيَ الْجَنَّةُ، فَإِذَا أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ فَقَدْ أَوْرَثَهُمْ مِنْ تَقْوَاهُمْ كَمَا يُورِثُ الْوَارِثُ الْمَالَ مِنَ الْمُتَوَفَّى.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : مَعْنَى إِيرَاثِهِمُ الْجَنَّةَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ لِكُلِّ نَفْسٍ مَنْزِلًا فِي الْجَنَّةِ ، وَمَنْزِلًا فِي النَّارِ ، فَإِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ : أَرَاهُمْ مَنَازِلَهُمْ فِي النَّارِ لَوْ كَفَرُوا وَعَصَوُا اللَّهَ لِيَزْدَادَ سُرُورُهُمْ وَغِبْطَتُهُمْ ; وَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُونَ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ) وَكَذَلِكَ يَرَى أَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ لَوْ آمَنُوا وَاتَّقَوُا اللَّهَ لِتَزْدَادَ نَدَامَتُهُمْ وَحَسْرَتُهُمْ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ : لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ مَنَازِلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي النَّارِ لِأَهْلِ النَّارِ ، وَمَنَازِلَ أَهْلِ النَّارِ فِي الْجَنَّةِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَرِثُونَ مَنَازِلَ أَهْلِ النَّارِ فِي الْجَنَّةِ ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْإِيرَاثِ الْمَذْكُورِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ .

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ : قَدْ جَاءَ حَدِيثٌ يَدُلُّ لِمَا ذُكِرَ مِنْ أَنَّ لِكُلِّ أَحَدٍ مَنْزِلًا فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلًا فِي النَّارِ ، إِلَّا أَنَّ حَمْلَ الْآيَةِ عَلَيْهِ غَيْرُ صَوَابٍ ; لِأَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَرِثُونَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمُ الْمُعَدَّةَ لَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ ، كَمَا قَدْ قَالَ تَعَالَى (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ ، وَلَوْ فَرَضْنَا أَنَّهُمْ يَرِثُونَ مَنَازِلَ أَهْلِ النَّارِ فَحَمْلُ الْآيَةِ عَلَى ذَلِكَ يُوهِمُ أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ إِلَّا مَا أُورِثُوا مِنْ مَنَازِلِ أَهْلِ النَّارِ وَالْوَاقِعُ بِخِلَافِ ذَلِكَ كَمَا تَرَى . (أضواء)

قوله (من كان تقياً) أن تقوى الله من أسباب دخول الجنة :

كما قال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ).

وقال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ).

وقال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ) . وقال تعالى (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ).

وقال تعالى (وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ). وقال تعالى (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ).

ولما سئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الجنة؟ قال: تقوى الله وحسن الخلق.

الفوائد :

١. فضل الله لقبول توبة من تاب .

٢. أن من تاب توبة صادقة تاب الله عليه .

٣. لابد من التوبة من الإيمان والعمل الصالح .

٤. الحرص على أن يكون العمل صالحاً ، وهو المخلص المتبع للنبي ﷺ .

٥. الحذر من أن يكون العمل غير صالح ، كأن يكون رياء أو ليس على سنة النبي ﷺ .

٦. أن الإيمان والعمل الصالح سبب لدخول الجنة .

٧. العمل الصالح الخالص سبب لصلاح حياة العبد في الدنيا والآخرة .

٨. تنزيه الظلم عن الله لكمال عدله .

٩. أن الجنة دار إقامة ورحمة .

١٠. أن جنات الدنيا لزوال .

١١. فضل الإيمان بالغيب .

١٢. في الجنة كل نعيم ، ومن ذلك السلام .

١٣. أهل الجنة يأتيهم رزقهم كل وقت يحتاجون إليه .

١٤. فضل التقوى .

١٥. أن الجنة دار المتقين .

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)) .

[مريم : ٦٤-٦٥] .

==========

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ) قال جبريل للرسول ﷺ عند ما سأله عن سبب احتباسه عنه لفترة من الوقت: يا محمد إني ما أتنزل عليك وقتا بعد وقت، إلا بأمر ربك وإرادته، فأنا عبده الذي لا يعصى له أمرا .

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ لِجبريل (مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورنَا أكثَر مِمَّا تَزُورنَا؟» فَنَزَلَتْ (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ) رواه البخاري.

قال الشوكاني: قَولُه (وَمَا نَتَنَزَّلُ) أي: قال الله سُبحانَه: قُلْ -يا جبريلُ-: وما نتنَزَّلُ...

وقيل: إنَّ هذا حكايةٌ عن أهلِ الجنَّةِ، وإنَّهم يقولونَ عند دخولِها: وما نتنزَّلُ هذه الجِنانَ إلَّا بأمرِ رَبِّك. والأوَّلُ أَولى؛ بدَلالةِ ما قَبلَه، ومعناه يحتَمِلُ وَجهَينِ: الأولُ: وما نتنزَّلُ عليك إلَّا بأمرِ رَبِّك لنا بالتنَزُّلِ. والثاني: وما نتنَزَّلُ عليك إلَّا بأمرِ رَبِّك الذي يأمُرُك به بما شَرَعه لك ولأمَّتِك .

قال ابن عاشور : والضمير لجبريل والملائكة ، أعلم الله نبيئه على لسان جبريل أن نزول الملائكة لا يقع إلاّ عن أمر الله تعالى وليس لهم اختيار في النزول ولقاء الرّسل ، قال تعالى (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) .

(لَهُ) سبحانه وتعالى .

(مَا بَيْنَ أَيْدِينَا) ما يستقبل من أمر الآخرة .

(وَمَا خَلْفَنَا) أي : ما مضى من الدنيا .

(وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ) أي : ما بين الدنيا والآخرة .

وهذا اختيار ابن جرير .

وقيل: معنى الآيةِ : له ما قدَّامنا وما خلفَنا، وما نحن فيه مِن الجهاتِ والأماكنِ، فليس لنا الانتقالُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ إلَّا بأمرِ الله .

وممن اختار هذا القولَ: الزمخشريُّ، والنسفي، وابنُ جزي .

قال ابن عطية: الآيةُ إنَّما المقصدُ بها الإشعارُ بملكِ الله تعالى للملائكةِ، وأنَّ قليلَ تصرفِهم وكثيرَه إنَّما هو بأمرِه، وانتقالهَم مِن مكانٍ إلى مكانٍ، إنَّما هو بحكمتِه؛ إذ الأمكنةُ له، وهم له، فلو ذهب بالآيةِ إلى أنَّ المرادَ بـ «ما بينَ الأيدي وما خلف» الأمكنةُ التي فيها تصرفُّهم، والمرادُ بـ «ما بينَ ذلك» هم أنفسُهم ومقاماتُهم لكان وجهًا، كأنَّه قال: نحن مقيدون بالقدرةِ، لا ننتقلُ ولا نتنزلُ إلا بأمرِ ربِّك .

(**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**) أي : وما كان ربك -أيها الرسول الكريم- ناسياً أو تاركاً لك أو مهملا لشأنك، ولكنه سبحانه محيط بأحوالك وبأحوال جميع المخلوقات لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ، وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ.

(**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**) أي : خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ ومالِكُهما وما بينَهما مِن الخَلقِ، ومُدَبِّرُ ذلك كلِّه، فلو كان نَسِيًّا لم يستَقِم الوُجودُ، ولا اضطربَ نظامُ الحياةِ، وهلكَت المخلوقاتُ .

(**فَاعْبُدْهُ**) أي: فاعبُدْ رَبَّك وَحدَه مُخلِصًا له .

ي: اخضع وتذلل لله سبحانه وتعالى، وأصل العبادة في لغة العرب: الذل والخضوع، وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده، **فالعبادة**: الذل والخضوع على وجه المحبة خاصة .

فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة، لأن الإنسان إذا كان ذله متجرداً عن محبة الله يُبغض الذي هو يذل له، ومن أبغض ربه هلك، وإذا كانت محبةً خالصة لا خوف معها، فإن المحب الذي لا يُداخله خوف يحمله الدلال على أن يسيء الأدب، ويرتكب أموراً لا تنبغي، والله عز وجل لا يليق به شيء من ذلك (قاله الشنقيطي).

قال ابن تيمية : لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله تعالى.

فيه وجوب عباد الله تعالى .

وقد جاءت النصوص الآمرة بذلك:

قال تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

وقال تعالى (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا).

وقال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً).

وقال تعالى (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ).

وقال تعالى (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ).

وأمر تعالى بعبادته حتى الموت. فقال تعالى (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ).

بل الناس ما خلقوا إلا لعبادة الله تعالى كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).

وأمر الله بها جميع رسله:

كما قال نوح لقومه (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)، وكذلك قال هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم.

وأخبر الله أنه أرسل في كل أمة رسولاً لهذا الغرض.

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

ووصف ملائكته بذلك:

فقال تعالى (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ).

وقد نعت الله نبيه بالعبودية في أكمل أحواله:

فقال في الإسراء (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً).

وقال في الإيحاء (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى).

وقال في الدعوة (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً).

وقال في التحدي (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ).

فالذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما هو المستحق للعبادة .

(**وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ**) أي : اصبِرْ صَبرًا عظيمًا بغايةِ جُهدِك على العَمَلِ بطاعتِه .

والاصطبار : شدّة الصبر على الأمر الشاق ، لأنّ صيغة الافتعال تَرِد لإفادة قوّة الفعل.

(**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**) أي : هل تعلم له نظيرا أو شبيها يستحق معه المشاركة في العبادة أو الطاعة؟ كلا، إنك لا تعلم ذلك، لأنه سبحانه هو وحده المستحق للعبادة والطاعة، إذ هو الخالق لكل شيء والعليم بكل شيء، والقادر على كل شيء، وما سواه إنما هو مخلوق له، وساجد له طوعا أو كرها، ولا شبهة في صفة من صفاته، فهو- سبحانه- لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

كما قال تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) .

وقال سُبحانَه (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) .

الفوائد :

١. إثبات الملائكة .

٢. إثبات علو الله .

٣. أن الملائكة عباد لله يفعلون ما يؤمرون .

٤. نفي صفة النسيان عن الله لكمال علمه سبحانه وتعالى .

٥. وجوب عبادة الله تعالى .

٦. أن المستحق للعبادة هو الخالق المدبر المتصرف .

٧. من لا يخلق ولا يدبر لا يستحق أن يعبد .

٨. على المسلم أن يجتهد وأن يصبر على عبادة الله وطاعته .

٩. كمال الله تعالى .

١٠. لا نظير ولا مثيل ولا كفو لله تعالى .

(**وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)**) .

[مريم : ٦٦-٧٢] .

==========

(**وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا**) أي: ويقولُ الإنسانُ الكافِرُ مُنكِرًا للبَعثِ بعدَ الموتِ: هل سأُخرَجُ بعدَ موتي وفَنائي حيًّا مِن قبري ؟! .

كما قال تعالى (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) .

وقال سُبحانه (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) .

قال السعدي : ... هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا بحسب عقله الفاسد ومقصده السيء، وعناده لرسل الله وكتبه، فلو نظر أدنى نظر، وتأمل أدنى تأمل، لرأى استبعاده للبعث، في غاية السخافة، ولهذا ذكر تعالى برهانا قاطعا، ودليلا واضحا، يعرفه كل أحد على إمكان البعث .

(**أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا**) **قال ابن الجوزي** المعنى : أَوَلا يتذكَّر هذا الجاحد أوَّل خلقه ، فيستدل بالابتداء على الإعادة؟

قال ابن كثير : يَسْتَدِلُّ تَعَالَى بِالْبَدَاءَةِ عَلَى الْإِعَادَةِ، يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا، أَفَلَا يُعِيدُهُ وَقَدْ صَارَ شَيْئًا .

ومن قدر على هذا الإيجاد الأول فلا شك في أنه قادر على البعث مرة أخرى بعد الموت ، لأن عامة العقلاء متفقون على إعادة الفعل أسهل من ابتدائه.

وقال السعدي : أي ، أو لا يلفت نظره، ويستذكر حالته الأولى، وأن الله خلقه أول مرة، ولم يك شيئاً، فمن قدر على خلقه من العدم، ولم يكن شيئا، مذكوراً ، أليس بقادر على إنشائه بعد ما تمزق، وجمعه بعد ما تفرق؟ ا.هـ

قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) .

وقال تعالى (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) .

وقال تعالى (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ).

قال تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ. إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ).

وقال تعالى (فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) .

وقال تعالى (يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى) .

وَفِي الصَّحِيحِ «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي، وَآذَانِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُؤْذِيَنِي، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ آخِرِهِ، وَأَمَّا أَذَاهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ إِنَّ لِي وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

قال السعدي : وفي قوله (أَوَلا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ) دعوة للنظر، بالدليل العقلي، بألطف خطاب، وأن إنكار من أنكر ذلك، مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه، لم ينكر ذلك.

(**فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ**) قال المفسرون : يُحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة .

(**ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا**) أي : نحضر هؤلاء المجرمين ، حول جهنم قعودا على الركب ، من شدة الهول والفزع ، لا يطيقون القيام على أرجلهم لما يدهمهم من شدة الأمر

قال السعدي : أي جاثين على ركبهم من شدة الأهوال، وكثرة الزلزال، وفظاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال .

(**ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا**) أي : ثمَّ لنأخُذَنَّ بشِدَّةٍ وعُنفٍ مِن كُلِّ جماعةٍ وفِرقةٍ مِن طوائِفِ الكُفرِ والضَّلالِ أشَدَّهم تمرُّدًا على الرَّحمنِ، وأعظَمَهم فَسادًا وكُفرًا وظُلمًا، فنبدأُ بتعذيبِهم، وإدخالِهم النَّار .

قال ابن الجوزي : أي: لنأخذنّ من كل فِرقة وأُمَّة وأهل دين (أيُّهم أَشَدُّ على الرحمن عَتِيّاً) أي: أعظمهم له معصية، والمعنى: أنه يُبدَأ بتعذيب الأعتى فالأعتى ، وبالأكابر جُرْماً ، والرؤوس القادة في الشرّ.

قال الرازي : المراد أنه تعالى يحضرهم أولا حول جهنم جثياً ثم يميز البعض من البعض فمن كان أشدهم تمرداً في كفره خص بعذاب أعظم لأن عذاب الضال المضل يجب أن يكون فوق عذاب من يضل تبعاً لغيره ، وليس عذاب من يتمرد ويتجبر كعذاب المقلد وليس عذاب من يورد الشبه في الباطل كعذاب من يقتدي به مع الغفلة قال تعالى (الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ) ، وقال (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ) فبين تعالى أنه ينزع من كل فرقة من كان أشد عتواً وأشد تمرداً ليعلم أن عذابه أشد ، ففائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص بأصل العذاب .

وقال الشوكاني : معنى (أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً) من كان أعصى لله وأعتى فإنه ينزع من كل طائفة من طوائف الغيّ والفساد أعصاهم وأعتاهم ، فإذا اجتمعوا طرحهم في جهنم ... والعتيّ ها هنا مصدر كالعتوّ ، وهو التمرّد في العصيان ، وقيل : المعنى لننزعن من أهل كلّ دين قادتهم ورؤساءهم في الشرّ.

قال ابن عاشور : والعُتِيّ : العصيان والتجبّر .

(**ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا**) أي : نحن أعلم بمن هم أحق بدخول النار ، والاصطلاء بحرّها ، وبمن يستحق تضعيف العذاب فنبدأ بهم .

(**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا**) أي : ما منكم أحد من بر أو فاجر ، ألا وسَيَرِد على النار ، كان ذلك الورود قضاءً لازما لا يمكن خلفه ، والحتم : الواجب الذي لا محيد عنه .

الخطاب في الآية لجميع الناس المؤمن والكافر ، وهذا القول هو الراجح .

قال ابن الجوزي : وفيمن عُني بهذا الخطاب ... أنه عامّ في حق المؤمن والكافر ، هذا قول الأكثرين.

وقال ابن جزي : (إِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا) خطاب لجميع الناس عند الجمهور .

وقال السعدي : ... وهذا خطاب لسائر الخلائق، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد، إلا سيرد النار، حكماً حتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه.

اختلف العلماء في المراد بالورود هنا على أقوال :

القول الأول : المراد بالورود الدخول لكن يصرف الله أذاها عن عباده المتقين .

وقد اختار هذا القول البغوي ، والنسفي ، وابن عاشور ، والآلوسي ، والشنقيطي .

قال البغوي : قال ابن عباس رضي الله عنهما وهو قول الأكثرين؛ معنى الورود هاهنا هو الدخول والكناية راجعة إلى النار وقالوا: النار يدخلها البر والفاجر ثم ينجي الله المتقين فيخرجهم منها. ... والدليل على أن الورود هو الدخول: قول الله عز وجل حكاية عن فرعون: "يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار"

وقال قوم: ليس المراد من الورود الدخول، وقالوا النار لا يدخلها مؤمن أبداً ... والمراد من قوله (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا) الحضور والرؤية .

وقال عكرمة: الآية في الكفار فإنهم يدخلونها ولا يخرجون منها .

والأول أصح وعليه أهل السنة : أنهم جميعا يدخلون النار ثم يخرج الله عز وجل منها أهل الإيمان بدليل قوله تعالى (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) . (تفسير البغوي)

أ-أَنَّ فِي نَفْسِ الْآيَةِ قَرِينَةً دَالَّةً عَلَى ذَلِكَ ، وَهِيَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا خَاطَبَ جَمِيعَ النَّاسِ بِأَنَّهُمْ سَيَرِدُونَ النَّارَ بَرُّهُمْ وَفَاجِرُهُمْ بِقَوْلِهِ (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا) بَيَّنَ مَصِيرَهُمْ وَمَآلَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْوُرُودِ الْمَذْكُورِ بِقَوْلِهِ (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا) أَيْ : نَتْرُكُ الظَّالِمِينَ فِيهَا ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ وُرُودَهُمْ لَهَا دُخُولُهُمْ فِيهَا ، إِذْ لَوْ لَمْ يَدْخُلُوهَا لَمْ يُقُلْ : وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا بَلْ يَقُولُ : وَنُدْخِلُ الظَّالِمِينَ ، وَهَذَا وَاضِحٌ كَمَا تَرَى ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ وَقَعُوا فِيمَا مِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ هَلَكَةٌ ، وَلِذَا عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ : وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا قَوْلَهُ : ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا .

ب-جاء في الحديث (لَا يَبْقَى بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ إِلَّا دَخَلَهَا ، فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَرْدًا وَسَلَامًا كَمَا كَانَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، حَتَّى إِنَّ لِلنَّارِ ضَجِيجًا مِنْ بَرْدِهِمْ ، ثُمَّ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَيَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) رواه أحمد والحاكم .

ج-أنه قد ورد لفظ الورود في القرآن في ثلاثة مواضع غير هذه الآية بمعنى الدخول .

كقوله تعالى (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ) فَهَذَا وُرُودُ دُخُولٍ .

وَكَقَوْلِهِ (لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ) فَهُوَ وُرُودُ دُخُولٍ أَيْضًا .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) .

د-قال ﷺ (لَا يَمُوت لِأَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَة مِنْ الْوَلَد فَتَمَسّهُ النَّار إِلَّا تَحِلَّة الْقَسَم) .

قَالَ الْعُلَمَاء : (تَحِلَّة الْقَسَم) مَا يَنْحَلّ بِهِ الْقَسَم ، وَهُوَ الْيَمِين ، وَجَاءَ مُفَسَّرًا فِي الْحَدِيث أَنَّ الْمُرَاد قَوْله تَعَالَى : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدهَا) وَبِهَذَا قَالَ أَبُو عُبَيْد وَجُمْهُور الْعُلَمَاء ، وَالْقَسَم مُقَدَّر أَيْ وَاَللَّه إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدهَا .

قال القرطبي : وظاهر الورود الدخول ؛ لقوله عليه السلام : "فتمسّه النار" لأن المسيس حقيقته في اللغة المماسة ، إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين ، وينجون منها سالمين.

القول الثاني : المراد بالورود المرور على الصراط .

واختار هذا القول : الطبري ، والسمرقندي ، وابن كثير ، والشوكاني .

ورجحه ابن أبي العز الحنفي ، والنووي

قال الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: يردها الجميع ثم يصدر عنها المؤمنون، فينجيهم الله، ويهوي فيها الكفار وورودهموها هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم، فناج مسلم ومكدس فيها.

أ-لأن الله حرم دخول النار على عباده الصالحين .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) قالوا : فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها .

قال الزجاج : والحجة القاطعة في هذا القول ما قال الله (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ ...) فهذا – والله أعلم – دليل على أن أهل الحسنى لا يدخلون النار .

ب- حديث أُمّ مُبَشّر أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ (لاَ يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ. الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا ». قَالَتْ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَانْتَهَرَهَا فَقَالَتْ حَفْصَةُ (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا) فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : قَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) رواه مسلم .

وجه الدلالة : أن حفصة لما استشكل عليها قول الرسول ﷺ بأنه لا يدخل النار أحد من أصحاب الشجرة ومن شهد بدراً والحديبية ظنت أن الورود بمعنى الدخول فذكرت الآية (وإن منكم إلا واردها ...) فأخبرها رسول الله ﷺ بقوله (ثم ننجي الذين اتقوا ...) أي: أن الله ينجي الذين اتقوا من دخولها، فدل ذلك على أن الورود ليس الدخول ، وإنما المرور من فوقها على الصراط.

وقيل : المراد بالورود هو الإشراف عليها والقرب منها .

والراجح – والله أعلم – أن المراد الورود هو المرور على الصراط .

قال الشوكاني : وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْقَوْلَ بِأَنَّ الْوُرُودَ هُوَ الْمُرُورُ عَلَى الصِّرَاطِ، أَوِ الْوُرُودُ عَلَى جَهَنَّمَ وَهِيَ خَامِدَةٌ فِيهِ جمع بين الْأَدِلَّةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَيَنْبَغِي حَمْلُ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ قَدْ حَصَلَ الْجَمْعُ بِحَمْلِ الْوُرُودِ عَلَى دُخُولِ النَّارِ مَعَ كَوْنِ الدَّاخِلِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مُبْعَدًا مِنْ عَذَابِهَا، أَوْ بِحَمْلِهِ عَلَى الْمُضِيِّ فَوْقَ الْجِسْرِ الْمَنْصُوبِ عَلَيْهَا، وَهُوَ الصِّرَاطُ كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا أَيْ: كَانَ وُرُودُهُمُ الْمَذْكُورُ أَمْرًا مَحْتُومًا قَدْ قَضَى سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِهِ لَا مَحَالَةَ .

وقال النووي : وَالصَّحِيح أَنَّ الْمُرَاد بِالْوُرُودِ فِي الْآيَة الْمُرُور عَلَى الصِّرَاط ، وَهُوَ جِسْر مَنْصُوب عَلَى جَهَنَّم ، فَيَقَع فِيهَا أَهْلهَا ، وَيَنْجُو الْآخَرُونَ .

وقال ابن أبي العز : واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) ما هو؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط .

تنبيه :

ذهب ابن حجر إلى أنه لا منافاة بين القول الأول والثاني فقال :

اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي الْمُرَادِ بِالْوُرُودِ فِي الْآيَةِ :

فَقِيلَ هُوَ الدُّخُولُ رَوَى عبد الرَّزَّاق عَن بن عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ أَخْبَرَنِي مَنْ سمع من بن عَبَّاسٍ فَذَكَرَهُ وَرَوَى أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَقِيلَ الْمُرَادُ بِالْوُرُودِ الْمَمَرُّ عَلَيْهَا .

وَهَذَانِ الْقَوْلَانِ أَصَحُّ مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ وَلَا تَنَافِيَ بَيْنَهُمَا لِأَنَّ مَنْ عَبَرَ بِالدُّخُولِ تَجَوَّزَ بِهِ عَنِ الْمُرُورِ وَوَجْهُهُ أَنَّ الْمَارَّ عَلَيْهَا فَوْقَ الصِّرَاطِ فِي مَعْنَى مَنْ دَخَلَهَا لَكِنْ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُ الْمَارَّةِ بِاخْتِلَافِ أَعْمَالِهِمْ .

تنبيه :

قال ابن رجب الحنبلي – رحمه الله – : " واعلم أن الناس منقسمون إلى : مؤمن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا ، ومشرك يعبد مع الله غيره ، فأما المشركون : فإنهم لا يمرون على الصراط إنما يقعون في النار قبل وضع الصراط . (التخويف من النار)

(**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا**) أي : ثم بعد دخول الناس جميعا النار، ننجي الذين اتقوا، فنخرجهم منها دون أن يذوقوا حرها .

وفيه فضل التقوى والمتقين .

(**وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا**) أي: ونترُكُ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والشِّركِ والمعاصي في النَّارِ بُروكًا على رُكَبِهم .

الفوائد :

١. وجوب الإيمان بالبعث .

٢. الرد على من ينكر البعث بتذكيره بنشأته الأولى .

٣. من أدلة إثبات البعث التذكير بالنشأة الأولى .

٤. تهديد الكفار بيوم القيامة وأن الله سوف يحشرهم ويعاقبهم .

٥. من شدة عذاب الكفار جلوسهم على الركب من الخوف والهلع .

٦. تفاوت الكفار في العذاب .

٧. أن القادة والرؤساء أشد عذاباً من غيرهم .

٨. إشارةٌ إلى أنَّ العذابَ يَتَوَجَّهُ إلى السَّاداتِ أوَّلًا، ثم تكونُ الأتباعُ تَبَعًا لهم فيه، كما كانوا تَبَعًا لهم في الدُّنيا ، فيُعذَّب الرؤساءُ القادةُ في الكفرِ قبلَ غيرِهم، ويشدَّدُ عليهم العذابُ؛ لضلالِهم وإضلالِهم .

٩. إثبات عموم علم الله تعالى .

١٠. علم الله بمن يستحق تضعيف العذاب ومن لا يستحق .

١١. ما من أحد إلا وسيرد النار . (وتقدم خلاف السلف في معنى الورود) .

١٢. فضل التقوى وأهلها .

١٣. أن من أسباب الخلود في النار الظلم وذلك بالكفر والشرك والتكذيب بالبعث .

(**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤) قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦)**) .

[مريم : ٧٣-٧٦] .

==========

(**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ**) أي : وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين، واضحات الإعجاز، بينات المعاني

قال القرطبي : و"بيناتٍ" معناه مرتَّلات الألفاظ ، ملخصة المعاني ، مبينات المقاصد ؛ إما محكمات ، أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات ، أو تبيين الرسول ﷺ قولاً أو فعلاً ، أو ظاهرات الإعجاز تُحدّي بها فلم يقدر على معارضتها.

أو حججاً وبراهين.

(**قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا**) كفار قريش .

(**لِلَّذِينَ آمَنُوا**) يعني فقراء أصحاب النبي ﷺ .

(**أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا**) أي : قال الكفرة المترفون لفقراء المؤمنين أيُّ الفريقين: – نحن أو أنتم – أحسنُ مسكناً، وأطيب عيشاً، وأكرم منتدى ومجلساً؟

قال القرطبي : وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين وإيهامهم أن من كثر ماله دل ذلك على أنه المحقّ في دينه ، وكأنهم لم يروا في الكفار فقيراً ولا في المسلمين غنياً ، ولم يعلموا أن الله تعالى نَحَّى أولياءه عن الاغترار بالدنيا ، وفرط الميل إليها.

ملخص شبهتهم : قالوا : لو كنتم أنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أحسن وأطيب من حالنا ، لأن الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين في العذاب والذل وأعداءه المعروضين عن خدمته في العز والراحة ، ولما كان الأمر بالعكس فإن الكفار كانوا في النعمة والراحة والاستعلاء ، والمؤمنين كانوا في ذلك الوقت في الخوف والذل دل على أن الحق ليس مع المؤمنين، هذا حاصل شبهتهم في هذا الباب ونظيره قوله تعالى (لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ) ويروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزينة الفاخرة ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على الله منهم.

قال البيضاوي: إن المشركين لما سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها، أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا، والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم لقصور نظرهم .

قال البقاعي : ويجعلون ذلك الامتحان بالإنعام والإحسان دليلاً على رضى الرحمن ، مع التكذيب والكفران ، ويغفلون عن أن في ذلك – مع التكذيب بالبعث – تكذيباً مما يشاهدونه منا من القدرة على العذاب بإحلال النقم ، وسلب النعم ، ولو شئنا لأهلكناهم وسلبنا جميع ما يفتخرون به .

قال ابن الجوزي : ومعنى الكلام : أنحن خير ، أم أنتم؟ فافتخروا عليهم بالمساكن والمجالس ، فأجابهم الله تعالى فقال (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) .

قال الشنقيطي : واستدلالهم هذا بحظهم في الحياة الدينا على حظهم يوم القيامة ، وأن الله ما أعطاهم في الدنيا إلا لمكانتهم عنده، واستحقاقهم لذلك لسخافة عقولهم – ذكره الله تعالى في مواضع من كتابه.

كقوله تعالى عنهم (وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هاذآ إِفْكٌ قَدِيمٌ) .

وقوله تعالى (وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بالشاكرين) .

وقوله تعالى (وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) .

وقوله تعالى (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات بَل لاَّ يَشْعُرُونَ) .

وقوله (أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً) .

وقوله (قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً) .

وقوله (وَلَئِن رُّجِّعْتُ إلى ربي إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى) .

إلى غير ذلك من الآيات. فكل هذه الآيات دالة على أنهم لجهلهم يظنون أن الله لم يعطهم نصيباً من الدنيا إلا لرضاه عنهم ، ومكانتهم عنده ، وأن الأمر في الآخرة سيكون كذلك.

وقد ابطل الله تعالى دعواهم هذه في آيات كثيرة من كتابه كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً) . (أضواء)

(**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ**) أَيْ : وَكَمْ مِنْ أُمَّةٍ وَقَرْنٍ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ قَدْ أهلكناهم بكفرهم .

(**هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا**) أيْ : كَانُوا أَحْسَنَ مِنْ هَؤُلَاءِ أَمْوَالًا وَأَمْتِعَةً ومناظر وأشكالا.

قال ابن عاشور : وقد أهلك الله أهل قرون كثيرة كانوا أرفه من مشركي العرب متاعاً وأجمل منهم منظراً.

فلو كان الحظ والنصيب في الدنيا يدل على رضا الله والمكانة عنده لما أهلك الذين من قبلكم، الذين هم أحسن أثاثاً ورئياً منكم.

قال البقاعي : {هم} أي أهل تلك القرون {أحسن} من هؤلاء {أثاثاً} أي أمتعة {ورئياً} أي منظراً .

قال ابن عطية : وقوله (وكم) مخاطبة من الله تعالى لمحمد خبر يتضمن كسر حجتهم واحتقار أمرهم لأن التقدير : هذا الذي افتخروا به لا قدر له عند الله وليس بمنج لهم فكم أهلك الله من الأمم لما كفروا وهو أشد من هؤلاء وأكثر أموالاً وأجمل منظراً. و"القرن" الأمة يجمعها العصر الواحد .

قال أبو السعود : (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً) أي :كثيراً من القرون التي كانت أفضلَ منهم فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية كعادٍ وثمودَ وأضرابِهم من الأمم العاتيةِ قبل هؤلاء أهلكناهم بفنون العذاب ، ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا لما فعلنا بهم ما فعلنا ، وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى ، كأنه قيل : فلينتظِرْ هؤلاءِ أيضاً مثلَ ذلك .

(قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا) أي: قل- أيها الرسول الكريم- لهؤلاء الكافرين المتفاخرين بمساكنهم ومظاهرهم.. قل لهم: من كان منغمسا في الضلالة والشقاوة والغفلة.. فقد اقتضت حكمة الله- تعالى- أن يمد له العطاء كأن يطيل عمره ويوسع رزقه، على سبيل الاستدراج والإمهال..

فصيغة الطلب وهي قوله- تعالى-: فَلْيَمْدُدْ على هذا التفسير، المراد بها: الإخبار عن سنة من سنن الله- تعالى- في خلقه، وهي أن سننه- تعالى- قد اقتضت أن يمهل الضالين، وأن يزيدهم من العطاء الدنيوي، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

قال تعالى (فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ. فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ) .

وقال تعالى (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ) .

وقال تعالى (فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بهذا الحديث سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) .

قال القرطبي : قوله تعالى (قُلْ مَن كَانَ فِي الضلالة) أي في الكفر (فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً) أي فليدعه في طغيان جهله وكفره؛ فلفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر ؛ أي من كان في الضلالة مدّه الرحمن مداً حتى يطول اغتراره فيكون ذلك أشدّ لعقابه.

نظيره (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا إِثْمَاً) وقوله (وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) ومثله كثير ؛ أي فليعش ما شاء ، وليوسع لنفسه في العمر؛ فمصيره إلى الموت والعقاب ، وهذا غاية في التهديد والوعيد. (القرطبي)

قال ابن الجوزي : قال المفسرون : ومعنى مدِّ اللهِ تعالى له : إمهالُه في الغَيِّ.

قال ابن عطية : وأما قوله (قل من كان الضلالة ...) فقول يحتمل معنيين ، أحدهما أن يكون بمعنى الدعاء والابتهال كأنه يقول الأضل منا أو منكم " مد " الله له أي أملى له حتى يؤول ذلك إلى عذابه ، والمعنى الأخر أن يكون بمعنى الخبر كأنه يقول من كان ضالاً من الأمم فعادة الله فيه أنه "يمد" له ولا يعاجله حتى يفضي ذلك إلى عذابه في الآخرة، فاللام في قوله (فليمدد) على المعنى الأول لام رغبة في صيغة الأمر، وعلى المعنى الثاني لام أمر دخلت في معنى الخبر ليكون أوكد وأقوى وهذا موجود في كلام العرب وفصاحتها.

قال ابن عاشور : أي فسيمد له الرحمان مداً ، أي إن ذلك واقع لا محالة على سنّة الله في إمهال الضُّلال ، إعذاراً لهم ، كما قال تعالى(أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) وتنبيهاً للمسلمين أن لا يغتروا بإنعام الله على الضُّلال حتى أنّ المؤمنين يَدْعُون الله به لعدم اكتراثهم بطول مدة نعيم الكفّار.

والمدّ : حقيقته إرخاء الحبل وإطالته ، ويستعمل مجازاً في الإمهال كما هنا ، وفي الإطالة كما في قولهم : مدّ الله في عمرك.

(حَتَّى إِذَا رَأَوْا) أي : هؤلاء الكفار .

(**مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ**) في الدنيا بالأسر والقتل .

(**وَإِمَّا السَّاعَةَ**) أي : عذاب الآخرة .

قال القرطبي : والعذاب هنا إما أن يكون بنصر المؤمنين عليهم فيعذبونهم بالسيف والأسر ؛ وإما أن تقوم الساعة فيصيرون إلى النار.

(**فَسَيَعْلَمُونَ**) حينئذ .

(**مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا**) أي: حينئذ يعلمون ويوقنون مَنْ هُوَ من الفريقين شَرٌّ مَكاناً. أي: أسوأ منزلاً ومسكناً وَأَضْعَفُ جُنْداً وأضعف أعواناً وأنصاراً .

وهذه الجملة الكريمة رد على قول المشركين قبل ذلك: أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا.

الفوائد :

١. إقامة الحجة على الكفار بإنزال الآيات البينات .

٢. أن آيات الله المنزلة فيها من الحق والنور لمن وفقه الله .

٣. اغترار الكفار بما هم عليهم من متاع الدنيا وزخرفها .

٤. أن الكفار يبثون الشبه على المسلمين ليفتنوهم .

٥. أن القرآن فيه الرد على كل شبه وأباطيل المكذبين .

٦. الوعيد الشديد للكفار بأن يحل بهم ما يحل بالأمم المكذبة السابقة .

٧. اعتقاد أن الكفار أن الغنى سبب لرضى الرب .

٨. وجوب الحذر من الشبه التي يلقيها الكفار على المسلمين .

٩. أن الدنيا يعطيها الله من يحب ومن لا يحب ، وأما الدين فلا يعطيه الله إلا من يحب .

١٠. فيه تنبيهٌ للمُسلِمينَ ألَّا يغتَرُّوا بإنعامِ اللهِ على الضُّلَّالِ .

١١. وجوب الاتعاظ بما حل بالأمم المكذبة .

١٢. أن عدم الاتعاظ الاعتبار من صفات الكفار .

١٣. أن الله لا يعجزه شيء لكمال علمه وقدرته .

١٤. أن الله أهلك كثيراً من الأمم المكذبة .

١٥. أنَّ الاستدلالَ على خيرِ الآخرةِ بخيرِ الدُّنيا مِن أفسَدِ الأدلَّةِ، وأنَّه مِن طُرُقِ الكُفَّار .

١٦. الحذر من الاغترار بالدنيا .

١٧. من سنن الله الماضية أنه يمهل الكافرين ويتركهم في الطغيان حتى يهلكم ليصبحوا عبرة لغيرهم .

١٨. تهديد الله لهؤلاء الكفار المكذبين بالعذاب إما في الدنيا أو في الآخرة .

١٩. سيعلم الكافر – ولا ينفع علمه – إذا حل به العذاب أنه كان على باطل واغترار .

(**وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦)**) .

[مريم : ٧٦] .

==========

(**وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**) أي : ويزيدُ الله المهتدينَ يقينًا وإيمانًا، وعلمًا نافعًا وتوفيقًا للعمل الصَّالح، وثباتًا على الحَق كما قال تعالى (والَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُم) .

أي : من كان في الضلالة زاده الله ضلالة ، ومن اهتدى زاده الله هدى. والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة .

كقوله في الضلال (فَلَمَّا زاغوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ) وقوله (بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) وقوله (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ) وقوله تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) .

وقال في الهدى (والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) وقال (هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة فِي قُلُوبِ المؤمنين ليزدادوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ) وقال (والذين جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) .

وقد جمع بينهما في آيات أخر. كقوله (وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إَلاَّ خَسَاراً) .

وقوله تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) .

وقوله تعالى (وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ) .

قال ابن القيم: فالعبد إذا آمن بالكتاب واهتدى به مجملاً وقبِل أوامره وصدق بأخباره، كان ذلك سبباً لهداية أخرى تحصل له على التفصيل، فإن الهداية لا نهاية ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ) فهداهم أولاً للإيمان، فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية، ونظير هذا قوله تعالى (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً) وقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً).

ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعز الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل.

وفي الآية دليل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب السلف .

كما قال تعالى (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً).

وقال تعالى (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ).

وقال تعالى (لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً).

وقال تعالى (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ).

وقال تعالى (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ).

وقال ﷺ (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن ...) . متفق عليه.

وجه الدلالة: أنه إذا ثبت النقص ثبتت الزيادة.

وقال ﷺ (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) . رواه أبو داود.

وعن ابن مسعود أنه قال (اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً) . رواه ابن بطة بإسناد صحيح.

وعن أبي الدرداء أنه كان يقول (الإيمان يزداد وينقص) . رواه ابن ماجه.

وكان معاذ يقول لرجل: اجلس بما نؤمن ساعة.

(**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**) اختلف العلماء في المراد بالباقيات الصالحات على أقوال :

القول الأول : الباقيات الصالحات هذه الكلمات: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَر ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ونسبه بعض المفسرين للجمهور.

قال ابن عطية : وقال الجمهور هي الكلمات المأثور فضلها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ونسبه أيضاً ابن جزي والشنقيطي للجمهور .

أ- لحديث أبي سعيد الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (اسْتَكْثِرُوا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ» . قِيلَ: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالتَّحْمِيدُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) رواه الحاكم .

ب- ولحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (خُذُوا جُنَّتَكُمْ» . قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: مِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟ قَالَ: " لَا جُنَّتَكُمْ مِنَ النَّارِ، قُولُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّهَا يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنْجِيَاتٍ وَمُقَدَّمَاتٍ وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَات) رواه الحاكم .

القول الثاني: أن الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس.

القول الثالث : أن الباقيات الصالحات هي الأعمال الصالحة كلها.

وهذا اختيار ابن جرير ، والواحدي ، والزمخشري ، وابن عطية ، والرازي ، والقرطبي ، والبيضاوي ، والشوكاني ، والألوسي ، والسعدي ، والشنقيطي .

قال الإمام الطبري – رحمه الله – وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال: هنّ جميع أعمال الخير، كالذي رُوي عن عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس؛ لأن ذلك كله من الصالحات التي تبقى لصاحبها في الآخرة، وعليها يجازى ويُثاب، وإن الله عزّ ذكره لم يخصص من قوله (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا) بعضاً دون بعض في كتاب، ولا بخبر عن رسول الله ﷺ .

ورجحه القرطبي فقال : وهو الصحيح إن شاء الله ؛ لأن كل ما بقي ثوابه جاز أن يقال له هذا.

وقال عليّ ﷺ : الحرث حرثان فحرث الدنيا المال والبنون ؛ وحرث الآخرة الباقيات الصالحات ، وقد يجمعهن الله تعالى لأقوام.

وقال الشنقيطي : وأقوال العلماء في الباقيات الصالحات كلها راجعة إلى شيءٍ واحدٍ وهو الأعمال التي ترضي الله سواء قلنا إنها " الصلوات الخمس "كما هو مروي عن جماعة من السلف منهم: ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو ميسرة وعمر بن شرحبيل، أو أنها: " سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم "، وعلى هذا القول جمهور العلماء، وجاءت دالة عليه أحاديث مرفوعة عن أبي سعيد الخدري وأبي الدرداء وأبي هريرة والنعمان بن بشير وعائشة ﷺ.

قال مقيده – عفا الله عنه – والتحقيق: أن الباقيات الصالحات: لفظ عام يشمل الصلوات الخمس والكلمات الخمس المذكورة وغير ذلك من الأعمال التي ترضي الله تعالى؛ لأنها باقية لصاحبها غير زائلة ولا فانية كزينة الحياة الدنيا؛ ولأنها – أيضاً – صالحة لوقوعها على الوجه الذي يرضي الله تعالى. (الأضواء).

ويشهد لذلك ما رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها (أنهم ذبحوا شاة على عهد النبي ﷺ وتصدقوا بها إلا كتفها، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ (مَا بَقِيَ مِنْهَا؟) قَالَتْ: عائشة: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلا كَتِفُهَا، قَالَ: (بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِها).

قال المباركفوري – رحمه الله –:أي: ما تصدقتَ به: فهو باق، وما بقي عندك: فهو غير باق، إشارة إلى قوله تعالى (مَا عِنْدَكم يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ).

(**خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا**) أي : جزاء .

(**وَخَيْرٌ مَّرَدًّا**) أي : عاقبة ومرداً على صاحبها .

قال السعدي : ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات–والله أعلم– أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد، وحسن المقام ونحو ذلك، علامة لحسن حال صاحبها، أخبر هنا أن الأمر، ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه.

فائدة : ١

فضل من اهتدى وسلك طريق الهداية ، والهدية : معرفة الحق والعمل به .

فائدة : ٢

كُلُّ من سلك طريقًا في العلمِ والإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، زاده الله منه، وسَهَّله عليه ويسَّرَه له، ووهب له أمورًا أُخَرَ لا تدخُلُ تحت كَسبِه .

فائدة : ٣

مِن الطرقِ التي تعينُ على حفظِ العلمِ وضبطِه: أن يهتديَ الإنسانُ بعلمِه، قال الله تعالى: وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى، فكُلَّما عَمِلَ الإنسانُ بعِلمِه زاده اللهُ حِفظًا وفَهمًا؛ لعُمومِ الآيةِ ، وقد يُيَسِّرُ الله لطالب العِلمِ عُلومًا أُخَرَ ينتَفِعُ بها، وتكونُ مُوصِلةً له إلى الجنَّةِ، كما قيل: مَن عَمِل بما عَلِم، أورثَه اللهُ عِلمَ ما لم يعلَمْ، وكما قيل: ثوابُ الحَسَنةِ الحَسَنةُ بعدها، وقد دَلَّت هذه الآية على ذلك، وكذلك قَولُه: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ .

فائدة : ٤

الأعمال الصالحة هي خير ما يقدمه الإنسان لنفسه ؟ لماذا ؟ لأنها هي التي تبقى ، أما الدنيا وزينتها فزائلة .

كما قال تعالى هنا (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً) .

وقال تعالى هنا (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً) .

وقد جاءت نصوص كثيرة تبين ذلك :

قال رسول الله ﷺ (يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله) .

وعن عبدِ الله بن الشِّخِّيرِ – بكسر الشينِ والخاء المعجمتين – رضي الله عنه – ، أنه قَالَ (أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، وَهُوَ يَقْرَأُ: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي ، مالي، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟) رواه مسلم.

وعن ابن مسعود. قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ (أيُّكُم مَالُ وَارِثِهِ أحبُّ إِلَيْهِ مِنْ ... مَالِهِ؟) قالوا: يَا رسول اللهِ ، مَا مِنَّا أحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: فإنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ) رواه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها: أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ (مَا بَقِيَ مِنْهَا؟) قالت: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُها. قَالَ : بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرُ كَتِفِهَا) رواه الترمذي .

ومعناه: تَصَدَّقُوا بِهَا إِلاَّ كَتِفَها. فَقَالَ: بَقِيَتْ لَنَا في الآخِرَةِ إِلاَّ كَتِفَهَا.

وقال الحسن البصري: يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بَذَج فيقول الله، عَزَّ وجل، [له] أين ما جمعت؟ فيقول يا رب، جمعته وتركته أوفر ما كان، فيقول: فأين ما قدمت لنفسك؟ فلا يراه قدم شيئا، وتلا هذه الآية : وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ). بذج: هو ولد الضأن أي يؤتي به وهو في غاية الضعف والذل.

والناس رأوا بأم أعينهم من يملك الملايين ، ومن يملك أموال لا يحصيها إلا رب العالمين ، ومع ذلك ماتوا وراحوا.

مر سليمان بحراث – وكان مع سليمان جنوده وموكبه العظيم – فقال الحراث : لقد أوتي سليمان ملكاً عظيماً ؟ فنزل سليمان إليه وقال : تسبيحة واحدة خير من ملك سليمان ، لأن ملك سليمان يفنى والتسبيحة تبقى .

فائدة : ٥

سماها باقية لأن نفعها يدوم ولا يبطل .

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)) .

[مريم : ٧٧ – ٨٠] .

==========

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا) أي: انظُرْ مُتعَجِّبًا –يا محمَّدُ– إلى هذا الذي كفَرَ بآياتِ القُرآنِ، وقال: واللهِ ليعطينِّي اللهُ في الآخرةِ –على تقديرِ قيامِها– مالًا وأولادًا، مع كُفرِه باللهِ وتكذيبِه بآياتِه، ومِن جُملتِها آياتُ البعثِ بعدَ الموتِ ؟! .

عن خَبَّابِ بنِ الأرَتِّ ﷺ، قال: (جئتُ العاصَ بنَ وائلٍ السَّهميَّ أتقاضاه حقًّا لي عندَه، فقال: لا أُعْطيك حتى تَكفُرَ بمُحمَّدٍ ﷺ، فقلتُ: لا حتى تموتَ ثمَّ تُبعَثَ، قال: وإنِّي لميتٌ ثمَّ مَبعوثٌ؟! قلتُ: نعم، قال: إنَّ لي هناك مالًا وولدًا فأقضيكه! فنزلت هذه الآيةُ: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا) .

(أَطَّلَعَ الْغَيْبَ) أي : هل أطلع على الغيب ، الذي تفرد بعلمه علام الغيوب ؟

(أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) أي : أم أعطاه الله عهدا بذلك ، فهو يتكلم عن ثقةٍ ويقين ؟

واختار هذا المعنى : البيضاوي، وابنُ كثير، والشوكاني، وابنُ عاشور، والشنقيطي.

وقيل : اتخاذُ العهدِ معناه بالإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ.

واختاره : ابنُ جرير، وابنُ عطية، والثعالبي، والسعدي. .

قال ابنُ جرير: (أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) يقولُ: أم آمنَ باللهِ، وعَمِلَ بما أُمِرَ به، وانتهى عمَّا نهاه عنه، فكان له بذلك عند الله عهدًا أن يؤتيَه ما يقولُ مِن المالِ والولَدِ؟! .

وقال ابن عطية : واتخاذ العهد معناه بالإيمان والأعمال الصالحة .

وقال السعدي : وإما أن يكون متخذا عهدا عند الله، بالإيمان به، واتباع رسله .

فإذا انتفى هذان الأمران، علم بذلك بطلان الدعوى، ولهذا قال تعالى: (كَلا) .

(كَلاَّ) حرف ردع وزجر له وتكذيب له ، ونفي لما يقول .

(سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ) أي : سنكتب قوله من كفر وكذب ، ومن تمنٍ باطل بقوله (لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا) .

قال الشنقيطي : ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة : من أنه يكتب ما يقول هذا الكفار ذكر نحوه في مواضع متعددة من كتابه :

كقوله تعالى (قُلِ الله أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ) .

وقوله تعالى (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) .

وقوله تعالى (هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق إِنَّ كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) .

وقوله تعالى (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ) .

وقوله تعالى (سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الحريق) .

وقوله تعالى (كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) .

وقوله تعالى (وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا ويلتنا مالِ هذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا) .

(**وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا**) أي : ونزيد له من العذاب زيادة عظيمة .

قال ابن عطية : ومد العذاب هو إطالته وتعظيمه .

قال البقاعي : (ونمد له من العذاب مداً) باستدراجه بأسبابه من كثرة النعم من الأموال والأولاد المحببة له في الدنيا ، المعذبة له فيها ، بالكدح في جمعها والمخاصمة عليها الموجبة له التمادي في الكفر الموجب لعذاب الآخرة ، وإتيان بعضه في إثر بعض (إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) .

(**وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ**) أيْ : مَا يَقُولُ إِنَّهُ يُؤْتَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ مَالٍ وَوَلَدٍ ، أَيْ : نَسْلُبُهُ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا مَا أَعْطَيْنَاهُ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ بِإِهْلَاكِنَا إِيَّاهُ .

وَقِيلَ : نَحْرِمُهُ مَا تَمَنَّاهُ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ فِي الْآخِرَةِ ، وَنَجْعَلُهُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَيَدُلُّ لِلْمَعْنَى الْأَوَّلِ :

قَوْلُهُ تَعَالَى (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) وَقَوْلُهُ (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُون) . (أضواء البيان)

قال الزجاج : المعنى : سنسلبه المال والولد ، ونجعله لغيره.

وقال البقاعي : (ونرثه) بموته عن جميع ذلك .

وقال الشوكاني : (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ) أي : نميته فنرثه المال والولد الذي يقول إنه يؤتاه.

(**وَيَأْتِينَا فَرْدًا**) أي : ويأتينا وحيدا لا مال معه ولا ولد ، ولا نصير له ولا سند .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) .

وَقَالَ تَعَالَى (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) .

الفوائد :

١. التعجب من شدة كفر هذا الكافر .

٢. كفر من لم يؤمن بآيات الله .

٣. وجوب الإيمان بالبعث .

٤. كفر من لم يؤمن بالبعث .

٥. الرد على هذا الكافر بقوله أنه سيعطَى في الآخرة المال والولد .

٦. لا أحد يعلم الغيب إلا الله .

٧. لا عهد لأحد عند الله إلا بالإيمان والعمل الصالح .

٨. تهديد لهذا الكافر ولكل منكر للبعث أنه سيكتب أعمالهم ويعاقبون عليها .

٩. إثبات كتابة الأعمال وإحصائها وحفظها .

١٠. تهديد هذا الكافر بأن الله سيهلكه ويترك المال والولد لغيره .

١١. أن الإنسان يأتي يوم القيامة فرداً ، لا مال ولا ولد .

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)) .

[مريم : ٨١-٨٤] .

==========

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا) أي : واتخذ المشركون أصناماً ، عبدوها من دون الله لينالوا بها العز والشرف .

(كَلَّا) زَجْرٌ وَرَدْعٌ لَهُمْ عَنْ ذَلِكَ الظَّنِّ الْفَاسِدِ الْبَاطِلِ ، أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ .

لأن ذلك طلب للعز من معدن الذل من العبيد الذين من اعتز لهم ذل ، فإنهم مجبولون على الحاجة ، ومن طلب العز للدنيا طلبه من العبيد لا محالة ، فاضطر قطعاً -لبنائهم على النقص- إلى ترك الحق واتباع الباطل، فكانت عاقبة أمره الذل وإن طال المدى، فإن الله تعالى ربما أمهل المخذول إلى أن ينتهي في خذلانه إلى أن يستحق لباس الذل . (البقاعي) .

(سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ) أي : سيكفر هؤلاء الآلهة يوم القيامة بعبادة المشركين لهم وينكرونها .

(وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) أي : فإن الآلهة التي عبدوها ، ستتبرأ من عبادتهم ويكونون لهم أعداء يوم القيامة .

فكل من عُبِد من دون الله يتبرأ من عابديه :

قال تعالى (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ) .

(إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا) أي: (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا) تبرأ الذين عُبدوا من دون الله كالأوثان والملائكة والجن والشيطان والرؤساء وعيسى – عليه السلام –، فكل من عُبِد من دون الله يتبرأ من عابديه (مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا) أي: من أتباعهم.

وقال تعالى (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ). [بعض العلماء حمل هذه الآية على أن المعبودين من دون الله هم الجن].

وقال تعالى (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) .

وقال تعالى (وقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ).

قال الشيخ ابن باز : هذه الآية تبين أنه لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله، ووصف المدعو من دون الله بأربع أوصاف:

الأولى: عدم استجابتهم لهم إلى يوم القيامة.

الثانية: أنهم غافلون عن دعائهم، إما لأنهم أموات، أو جماد لا إحساس لهم، أو حي مشغول، أو ملك لا علم له بمن دعاه

الثالثة: أنهم يكونون أعداءً لمن عبدوهم يوم القيامة.

الرابعة: أنهم يبرؤون من عبادتهم وينكرونها .

(**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ**) أيْ : سَلَّطْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ وَقَيَّضْنَاهُمْ لَهُمْ .

قال ابنُ عطية: الرؤيةُ في الآيةِ رؤيةُ القلبِ .

(**تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**) أي : تزعجهم وتهيجهم إلى الكفر والمعاصي .

قال ابن الجوزي : تزعجهم إزعاجاً حتى يركبوا المعاصي .

وقال النسفي : تغريهم على المعاصي إغراء .

وَمَا ذَكَرَهُ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ أَنَّهُ سَلَّطَ الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ ، وَقَيَّضَهُمْ لَهُمْ يُضِلُّونَهُمْ عَنِ الْحَقِّ بَيَّنَهُ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ مِنْ كِتَابِهِ :

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ) .

وَقَوْلِهِ (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ) .

(**فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ**) أي : فلا تعجل يا محمد على هؤلاء الكافرين وقوع العذاب بهم ، فَإِنَّ اللَّهَ حَدَّدَ لَهُ أَجَلًا مُعَيَّنًا مَعْدُودًا ، فَإِذَا انْتَهَى ذَلِكَ الْأَجَلُ جَاءَهُمُ الْعَذَابُ .

(**إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا**) أيْ : نَعُدُّ الْأَعْوَامَ وَالشُّهُورَ وَالْأَيَّامَ الَّتِي دُونَ وَقْتِ هَلَاكِهِمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْوَقْتُ الْمُحَدَّدُ لِذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ .

وما ذَكَرَهُ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ أَنَّ هَلَاكَ الْكُفَّارِ حُدِّدَ لَهُ أَجَلٌ مَعْدُودٌ ذَكَرَهُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ :

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ) .

وَقَوْلِهِ (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ) .

وَقَوْلِهِ (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ) .

وَقَوْلِهِ (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ) .

وَقَوْلِهِ (قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ) .

وَقَوْلِهِ (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) .

وقيل : المعنى ، ونحن نَعُدُّ أعمالَهم كلَّها ونُحصيها حتى أنفاسَهم؛ لنُجازيَهم على جميعِها، ونؤخِّرُ إهلاكَهم ليزدادوا إثمًا، ولم نَترُك تعجيلَ هلاكِهم لخيرٍ أردناه بهم. .

وقيل : نعد أنفاسهم في الدنيا .

الفوائد :

١. تجهيل المشركين في اتخاذهم آلهة غير الله ليعتزوا بها .

٢. كل من اتخذ شيئًا يتعزز به من دون الله وطاعته انقلب عليه ذُلاً وهوانًا ، ولذلك قيل : من تعزز بمخلوق مات عزه .

٣. يوم القيامة يكون خلاف ما أراد هؤلاء الكفار ، حيث تكفر الآلهة بهم وتتبرأ منهم .

٤. قضاء الله كوناً بتسليط الشياطين على الكافرين تؤزهم إلى الكفر والمعاصي أزاً .

٥. أن هلاك الله للكافرين له وقت محدد لا يتأخر ولا يتقدم .

٦. أن الله له الحكمة البالغة في تأخير هلاك المكذبين .

٧. عدم اليأس حيث يرى المؤمن قوة الكفار ، فإن الله لهم بالمرصاد .

(يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧))

[مريم : ٨٥- ٨٧] .

==========

(**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا**) أي: اذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ القيامةِ حين نجمعُ الذين اتَّقَوا اللهَ بامتثالِ ما أمرَ، واجتنابِ ما نهى، فنقودُهم إلى الرَّحمنِ راكبينَ في رِفعةٍ وعلوٍّ، فيَقدَمونَ إلى جنَّتِه، ومحَلِّ ضِيافتِه، ودارِ كرامتِه ورِضوانِه .

كما قال تعالى (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا) .

قال ابن كثير : يخبر الله- تعالى- عن أوليائه المتقين، الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله وصدقوهم، أنه يحشرهم يوم القيامة وفدا إليه. والوفد هم القادمون ركبانا ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة. وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه.

قال ابن عطية : و{ وفداً } قال المفسرون معناه ركباناً وهي عادة الوفود لأنهم سراة الناس وأحسنهم شكلاً فشبه أهل الجنة بأولئك لا أنهم في معنى الوفادة إذ هو مضمن الانصراف ، وإنما المراد تشبيههم بالوفد هيئة وكرامة .

قال ابن الجوزي : وفي زمان هذا الحشر قولان.

أحدهما : أنه من قبورهم إلى الرحمن ، قاله علي بن أبي طالب.

والثاني : أنه بعد الحساب ، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قال أبو حيان : والظاهر أن هذه الوفادة بعد انقضاء الحساب وأنها النهوض إلى الجنة كما قال (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) وشبهوا بالوفود لأنهم سراة الناس وأحسنهم شكلاً .

وقال الشنقيطي : وَرُكُوبُهُمُ الْمَذْكُورُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمَحْشَرِ إِلَى الْجَنَّةِ ، أَمَّا مِنَ الْقَبْرِ فَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ مُشَاةً ، بِدَلِيلِ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ الدَّالِّ عَلَى أَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ، هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ وَجَزَمَ بِهِ الْقُرْطُبِيُّ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

(**وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا**) أي : ونسوق المجرمين الذين ارتكبوا الجرائم في دنياهم، نسوقهم سوقا إلى جهنم كما تساق البهائم. حالة كونهم عطاشا، يبحثون عن الماء فلا يجدونه.

ووِرْداً أي: عطاشا. وأصل الورد الإتيان إلى الماء بقصد الارتواء منه بعد العطش الشديد.

قال الرازي : دليل على أنَّهم يُساقُونَ إلى النَّارِ بإهانةٍ واستخفافٍ، كأنَّهم نَعَمٌ عطاشٌ تُساقُ إلى الماءِ .

قال ابن عطية : و" السوق " يتضمن هواناً لأنهم يحفزون من ورائهم ، و" الورد " العطاش قاله ابن عباس وأبو هريرة والحسن ، وهم القوم الذين يحتفزون من عطشهم لورود لماء .

(**لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**) أي: ليس للكافرينَ مِن الشَّفاعةِ شَيءٌ يومَ القيامةِ، فلا يَشفَعونَ لأحَدٍ، ولا يستَحِقُّونَ أن يشفَعَ لهم أحدٌ، لكنْ من كان مؤمنًا بالله موحِّدًا ومطيعًا له؛ فإنَّه يشفعُ لِغَيرِه، وينتَفِعُ بشَفاعةِ غَيرِه له .

كما قال تعالى (مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ) .

وقال سُبحانه (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) .
وقال تعالى (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .
وقال عزَّ وجلَّ (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) .
وعلى هذا القول فالضمير في قوله تعالى (لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ ...) يرى بعضهم أنه يعود إلى المجرمين في قوله (نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ ...) أي: نسوق المجرمين إلى جهنم عطاشا، حالة كونهم لا يملكون الشفاعة لغيرهم، ولا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم، لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا وهم المؤمنون الصادقون فإنهم يملكونها بتمليك الله- تعالى- لهم إياها وإذنه لهم فيها .
ويرى آخرون أن الضمير في قوله: لا يَمْلِكُونَ ... يعود إلى فريقي المتقين والمجرمين.
أي: لا يملك أحد من الفريقين يوم القيامة الشفاعة لأحد، ولا يملك غيرهم الشفاعة لهم، إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ منهم عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً وهم المؤمنون فإنهم يملكون بإذن الله لهم.
وعلى هذا يكون الاستثناء متصلا، ويكون لفظ مَنِ بدل من الواو في يَمْلِكُونَ.
قال القرطبي : قوله تعالى (لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة) أي هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد (إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً) وهم المسلمون فيملكون الشفاعة ، فهو استثناء الشيء من غير جنسه ؛ أي لكن "من اتخذ عِند الرحمنِ عهداً" يشفع؛ فـ "من" في موضع نصب على هذا.
وقيل : هو في موضع رفع على البدل من الواو في "يملكون" أي لا يملك أحد عند الله الشفاعة (إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً) فإنه يملك ؛ وعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً.
وقال الآلوسي : قوله (لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ ...) ضمير الجمع يعم المتقين والمجرمين، أي: العباد مطلقا ... وقوله إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً استثناء متصل ... والمعنى: لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم، إلا من اتصف منهم بما يستأهل معه أن يشفع وهو المراد بالعهد .
وقال الشوكاني : والضمير في (يملكون) راجع إلى الفريقين . وقيل : للمتقين خاصة . وقيل : للمجرمين خاصة، والأوّل أولى .
(**إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**) اختلف السلف في المراد بالعهد في الآية :
فقيل : الإيمان والعمل الصالح .
ورجحه الشنقيطي ، ونسبه الآلوسي إلى جمهور المفسرين .
قال الشنقيطي : والذي يظهر لي أن العهد في الآية يشمل الإيمان بالله وامتثال أمره واجتناب نهيه.
وقال السعدي : وسمى الله الإيمان به واتباع رسله عهداً ، لأنه عهد في كتبه ، وعلى ألسنة رسله بالجزاء الجميل لمن اتبعهم .
وقيل : المحافظة على الصلوات الخمس .
عن عُبَادَةَ بْن الصَّامِت قال: قال ﷺ (خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ، فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ، كَانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ). رواه أبو داود
وقيل : المراد بالعهد الإذن والأمر ، أي : الإذن في الشفاعة .
ورجحه ابن جزي .
لقوله تعالى (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى) .
وقال تعالى (وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) .

وقال تعالى (يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً) .

الفوائد :

١. إثبات الحشر .

٢. فضل التقوى .

٣. الحرص على التقوى والاجتهاد في تطبيقها .

٤. رحمة الله بعباده المتقين .

٥. فيه بيان كيفية حشر المتقين وأنهم يحشرون وفداً بخلاف المجرمين .

٦. بيان حشر الكفار وأنهم يحشرون ويساقون سوقاً عطاشاً .

٧. الناس يوم القيامة ينقسمون إلى قسمين مؤمنين وكفار .

٨. لا شفاعة للكفار (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) .

٩. لا عهد بين الله وبين أحد من خلقه إلا بالإيمان والعمل الصالح .

١٠. أن العبرة يوم القيامة بالإيمان والعمل الصالح .

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)) .

[مريم : ٨٨- ٩٥] .

==========

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) أي: وقال هؤلاء الكافِرونَ: اتَّخَذَ الرَّحمنُ ولدًا له .

وهذا الولد المزعوم على زاعمه لعائن الله، قد جاء مفصلاً في آيات أخر، كقوله تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) وقوله (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ).

قال ابن عطية : الضمير في (قالوا) للكفار من العرب في قولهم للملائكة بنات الله وللنصارى ولكل من كفر بهذا النوع من الكفر

(لَقَدْ جِئْتُمْ) بقولكم هذا .

(شَيْئًا إِدًّا) أي : عظيماً .

قال الواحدي: لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا عظيمًا، في قولِ الجميعِ .

وقال ابن عطية : و" الإد " الأمر الشنيع الصعب وهي الدواهي والشنع العظيمة .

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ) على صلابتها وعظمتها وإحكامها .

(يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ) أي : من هذا القول .

قال ابن الجوزي : ومعنى "يتفطَّرن منه" : يقاربن الانشقاق من قولكم.

(وَتَنشَقُّ الأَرْضُ) منه ، تتصدع وتتفطر .

(وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا) أي: وتكادُ الجِبالُ على صلابتِها تسقُطُ سَريعًا، فتندَكُّ وتتفَتَّتُ

(أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا) أي : من أجل هذه الدعوى القبيحة ، تكاد هذه المخلوقات أن يكون لها ما ذكر .

(**وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا**) أَيْ : لَا يَصْلُحُ لَهُ وَلَا يَلِيقُ بِهِ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، لِأَنَّهُ لَا كُفْءَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ، لِأَنَّ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ عَبِيدٌ لَهُ .

(**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**) أي: ما مِن أحدٍ مِن أهلِ السَّمواتِ ومَن أهلِ الأرضِ إلَّا سيأتي إلى الرَّحمنِ يومَ القيامةِ ذَليلًا خاضِعًا، مقِرًّا له بعبوديَّتِه، فكيف يكونُ أحدٌ مِن خَلقِه ولدًا له، والحالُ أنَّ الجميعَ مِلكُه وعَبيدُه، يتصَرَّفُ فيهم كما يشاءُ؟ أمَّا هم فليس لهم من الملكِ والتصَرُّفِ شيءٌ !

(**لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا**) أَيْ : قَدْ عَلِمَ عَدَدَهُمْ مُنْذُ خَلْقَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ذَكَرَهُمْ وأنثاهم، صغيرهم وَكَبِيرَهُمْ .

قال القرطبي : (لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ) أي علم عددهم (وَعَدَّهُمْ عَدّاً) تأكيد ؛ أي فلا يخفى عليه أحد منهم.

(**وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا**) أي: وكُلُّ واحدٍ مِن الخلائِقِ سيأتي إلى اللهِ يومَ القيامةِ بعدَ بَعثِه مِن الموتِ وَحيدًا، لا أولادَ معه، ولا مالَ له، ولا أنصارَ، ليس معه إلا عَمَلُه، فيقضي اللهُ فيه بحُكمِه، ويُجازيه، ويوَفِّيه حسابَه، فكيف يُتصوَّرُ في بالٍ أو يَقَعُ في خيالٍ أن يكونَ شَيءٌ مِن خَلْقِه وعَبيدِه له ولدًا، أو معه شريكًا .

فائدة : ١

القول بأن الله اتخذ ولداً منكر وجرم كبير .

كما في هذه الآية (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ ...) .

وقال تعالى (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (قَالَ اللَّهُ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَداً) رواه البخاري.

وقال ﷺ (لا أحد أصبر على اذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافيهم) متفق عليه

فائدة : ٢

الله منزه عن الولد لأمور متعددة:

أولاً: لأنه مالك كل شيء ، والمالك لا بد أن يكون المملوك مباينا له في كل الأحوال.

ثانياً: أنه ليس له زوجة ، والابن إنما يكون غالباً ممن له زوجة ، كما ذكر الله ذلك في سورة الأنعام (أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ).

ثالثاً: أن الولد إنما يكون لمن يحتاج للبقاء ، أي: بقاء النوع باستمرار النسل ، والرب عز وجل ليس بحاجة إلى ذلك ، لأنه الحي الذي لا يموت.

رابعاً: أن الابن إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره، والله سبحانه وتعالى غني، وقد أشار إلى ذلك بقوله (سبحانه هو الغني). ... [قاله الشيخ ابن عثيمين].

قال الرازي: إن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالاً واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له ، وبأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وقال في مريم (ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ قَوْلَ الحق الذي فِيهِ يَمْتَرُون مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سبحانه إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون) وقال أيضاً في آخر هذه السورة (وَقَالُوا اتخذ الرحمن وَلَداً

* لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً * أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً * إِن كُلُّ مَن فِي السموات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً).

فائدة : ٣

وجوب تنزيه الله عن كل عيب ونقص وما فيه مشابهة المخلوقين .

فإن الله لما ذكر وصف الكفار له بما لا يليق به ، نزه نفسه عن ذلك ، معلماً خلقه في كتابه أن ينزهوه عن كل ما لا يليق به ، جاء موضحاً في آيات كثيرة:

كقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً **سُبْحَانَهُ**).

وقوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ **سُبْحَانَهُ** وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ).

وقوله تعالى (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً **سُبْحَانَهُ** هُوَ الْغَنِيُّ).

وقوله تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ **سُبْحَانَهُ** وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ).

وقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً **سبْحَانَهُ** بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ).

وقوله تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً. **سُبْحَانَهُ** وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً).

وقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا **فَسُبْحَانَ** اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

فائدة : ٤

بيان غنى الله عن اتخاذ الولد، حيث أنه سبحانه وتعالى مالك السماوات والأرض وما فيهما، وهو الغني .

فائدة : ٥

أن جميع الخلق قانت لله، ومنهم: عزير والمسيح والملائكة، فلا يمكن أن يكون له ولد.

فائدة : ٦

العبوديَّةُ نوعانِ:

عبودية عامة: وهي عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله ، برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم ، فهذه عبودية القهر والملك.

قال تعالى (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً).

وقال تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) وقال تعالى (ومَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ).

وعبودية خاصة : عبودية الطاعة والمحبة .

قال تعالى (يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ).

وقال تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً).

وقال تعالى (فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) .

فائدة : ٧

عموم علم الله تعالى بكل شيء ، فلا تخفى عليه خافية .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنـذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧)) .

[٩٦-٩٧] .

==========

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) بقلوبهم.

وكلَّما جاءَت "آمَنُوا" فالمرادُ: آمَنُوا بما يَجِبُ الإيمانُ به منَ الأصُولِ السِّتَّةِ الَّتي بيَّنها الرَّسولُ ﷺ لجِبريلَ عليه السلام حِينَ قال: "الإيمانُ أنْ تُؤمِنَ باللهِ وبمَلائِكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خيرِه وشرِّه .

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أي: وعملوا الأعمال الصالحات من واجبات ومستحبات.

والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات، وأما إذا عُطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وبكل ما يجب الإيمان به.

والعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون خالصاً لله، قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى) متفق عليه.

الشرط الثاني: أن يكون متابعاً للنبي ﷺ لقوله ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

ودائماً يقرن الله العمل بالصالح، لأنه ليس كل عمل يقبل إلا إذا كان صالحاً.

قال السعدي: ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته.

(سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) أي : حباً في قلوب عباده ، يجعله لهم من دون أن يطلبوه بالأسباب التي توجب ذلك ، كما يقذف في قلوب أعدائهم الرعب .

قال الرازي : قوله (وُدّاً) قولان : الأول : وهو قول الجمهور أنه تعالى سيحدث لهم في القلوب مودة ويزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ولا تعرض للأسباب التي يكتسب الناس بها مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف أو غير ذلك ، وإنما هو اختراع منه تعالى وابتداء تخصيصاً لأوليائه بهذه الكرامة كما قـذف في قلوب أعـدائهم الرعب والهيبة إعظاماً لهم وإجلالاً لمكانهم .

قال ابن عطية : ذهب أكثر المفسرين الى أن هذا هو القبول الذي يضعه الله لمن يحب من عباده حسبما في الحديث المأثور ، وقال عثمان بن عفان إنها بمنزلة قول النبي عليه السلام " من أسر سريرة ألبسه الله رداءها " وفي حديث أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : ما من عبد إلا وله في السماء صيت فإن كان حسناً وضع في الأرض حسناً وإن سيئاً وضع كذلك .

وقال الآلوسي : أي مودة في القلوب لإيمانهم وعملهم الصالح ، والمشهور أن ذلك الجعل في الدنيا.

قال السعدي : هذا من نعمه على عباده، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن وعدهم أنه يجعل لهم وداً، أي: محبة ووداداً في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب ود تيسر لهم كثير من أمورهم وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ) متفق عليه .

قال ابن القيم : التحاب والتآلف إنما هو بالإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: (إنّ الَّذِينَ آمَنوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُداً) أي يلقي بينهم المحبة، فيحب بعضهم بعضا، فيتراحمون، ويتعاطفون بما جعل الله لبعضهم في قلوب بعض من المحبة.

وقال ابن عباس "يحبهم ويحببهم إلى عباده".

قال هرم بن حيان "ما أقبل عبد بقلبه إلى الله عز وجل إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم".

وأهل المعاصي والفسوق وإن كان بينهم نوع مودة وتحاب، فإنها تنقلب عداوة وبغضاً، وفي الغالب يتعجل لهم ذلك في الدنيا قبل الآخرة، أما في الآخرة ف (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) .

وقال إمام الحنفاء لقومه (إنّما اتَّخَذْتُمْ مِن دُونِ اللهِ أوْثانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكم في الحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ القِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكم بَبَعْضُ ويلعن بَعْضُكم بَعْضاً) .

(**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ**) أي هذا القرآن ، الذي عجز عن معارضته الإنس والجان ، والكتاب القيم والوحي الذي لا مبدل له بسبب إنزالنا إياه.

كما قال تعالى (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) .

وقال تعالى (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) .

(**بِلِسَانِكَ**) أي : يا محمد ، وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل .

كما قال تعالى (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) .

وقوله تعالى (الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) .

وقوله تعالى (حم والكتاب المبين إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) .

وقوله تعالى (لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) إلى غير ذلك من الآيات.

(**لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ**) وهم الذين يجعلون بينهم وبين ما يسخط الله وقاية ، فلا يبطلون حقاً ولا يحقون باطلاً ، ومتى حصلت لهم هفوة بادروا الرجوع عنها بالمتاب .

قال أبو حيان : أي تخبرهم بما يسرهم وبما يكون لهم من الثواب على تقواهم .

والتبشير الإخبار بما يسر .

(**وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا**) الألد شديد الخصومة .

قال ابن عطية : الألد الخاصم المبالغ في ذلك .

وقال ابن الجوزي : واللُّدُّ ، جمع أَلَدٍّ ، وهو الخَصِمُ الجَدِل.

وقال أبو السعود : واللُّد جمعُ الألد وهو الشديدُ الخصومة اللَّجوجُ المعانِدُ.

قال القرطبي : وخصوا بالإنذار ؛ لأن الذي لا عناد عنده يسهل انقياده.

الفوائد :

١. أنَّ الإيمانَ وحْدَه لا يَكفِي حتَّى يقتَرِنَ بعَمَلٍ، لكِن إذا أُطلِقَ الإيمانُ شَمِلَ العمَلَ، وإنْ ذُكِرَ معَه العمَلُ صارَ العَمَلُ علانيةً والإيمانُ سِرًّا؛ مِثل قولِه تَعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) هُنا جمَعَ بيْن الإيمانِ والعمَلِ؛ فيَكون الإيمانُ في القَلْبِ، والعَمَلُ في الجوارحِ.

٢. نعمة كبرى لأهل الإيمان والعمل الصالح وهو إلقاء المحبة لهم في قلوب المؤمنين .

٣. أن الإيمان مَتى وقَر في القَلْب صدَّقَتْه الأَعْمال .

٤. الحذر من الرياء ، فإن العمل إذا دخله الشرك فليس بصالح .

٥. الحرص على الإخلاص والمتابعة في العمل حتى يكون صالحاً .

٦. بقدر إيمانك وعملك الصالح يزرع الله لك ودا في قلوب العالمين .

٧. أجمل الهِبات في الحياة أن يزرع الله لك حبا وقبولا في القلوب .

٨. كم من إنسان في غابر الزمان وحاضره نحبه ولم نراه .

٩. اسعَ في كسب ودّ من في السماء؛ ليحبّك من في الأرض.

١٠. من أحسن ما بينه وبين الله كفاه اللهُ ما بينه وبين الناس .

١١. ما أقبل عبد بقلبه إلى الله؛ إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودّتهم.

١٢. أقصر طريق لتحقيق الود الإيمان والعمل الصالح .

١٣. أحياناً نتساءل عن سر القبول والمحبة الكبيرة لشخص معين ، فتأتي الإجابة في هذه الآية: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً .

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)) .

[مريم : ٩٨] .

==========

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ) أي: وكثير من القرى أهلكناها، والمراد بالقرية أهلها.

قال ابن الجوزي: (كم) تدل على الكثرة .

قال الخازن : ختم الله تعالى هذه السورة بموعظة بليغة لأنهم إذا علموا وأيقنوا أنه لا بد من زوال الدنيا بالموت خافوا ذلك وخافوا سوء العاقبة في الآية فكانوا إلى الحذر من المعاصي أقرب.

قوله **(من قرن)** هم أهل الزمان الواحد المتعاصرين، سموا بذلك لاقتران بعضهم ببعض، والعصر مائة سنة على أحد الأقوال، وقيل: ثمانين، وقيل غير ذلك.

ورجح القرطبي أن المراد (بالقرن) هم الأمة من الناس ، مقترنين في زمن واحد.

واختار هذا القول: الطبري ، والزجاج ، والبغوي ، وابن عطية ، وابن الجوزي ، وابن كثير ، والسيوطي.

فإن هذه الكلمة يدل اشتقاقها من الاقتران ، أي هم القوم الذين كانوا مقترنين في ذلك الوقت.

ولقوله ﷺ (خير الناس قرني ...).

وكثرة استعمال القرآن لهذا المعنى ، ففي سورة الفرقان بعد أن ذكر الله قوم نوح وفرعون وعاداً وثمود قال (وقروناً بين ذلك كثيراً) أي: أمماً وأقواماً وأجيالاً.

وقيل: المراد بالقرن المدة من الزمن ، واختلفوا في تحديدها على أقوال:

قال ابن جزي: والقرن: مائة سنة ، وقيل: سبعون ، وقيل: أربعون.

والأول عليه الأكثر:

لقوله ﷺ لعبد الله بن بسر (عش قرناً) فعاش مائة سنة.

ولقوله ﷺ (أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإنه على رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض أحد).

ولقوله ﷺ (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس مائة سنة من يجدد لها أمر دينها).

(**هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ**) أي : هل ترى منهم أحداً .

(**أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا**) أو تسمع لهم صوتاً .

والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم دورهم وأوحشت منهم منازلهم . وكذلك هؤلاء صائرون إلى ما صار إليه أولئك ، إن لم يتداركوا بالتوبة.

كما قال تعالى في عاد (فَهَلْ ترى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ) وقوله فيهم (فَأْصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ) و قوله (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ) .

قال ابن جزي : والمعنى أنهم لم يبق منهم أثر ، وفي ذلك تهديد لقريش .

وقد أخبر الله أنه أهلك كثيراً من القرى.

قال تعالى (وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ).

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً).

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً).

وقال تعالى (وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً).

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ).

وأخبر الله أن هلاك القرى والأمم بسبب ذنوبهم وكفرهم.

قال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ).

وقال تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً).

وقال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا).

وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ).

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ).

وأخبر تعالى أنه لا يهلك القرى حتى يرسل إليهم الرسل.

قال تعالى (ومَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً).

وقال تعالى (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ).

وقال تعالى (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا).

الفوائد :

١. أن الله أهلك كثيراً من القرى لما طغت وكفرت .

٢. خطر الكفر والظلم وأنه سبب للهلاك .

٣. شدة عقاب الله للمكذبين .

٤. أن الله أهلك القرى المكذبة فلم يبقى منهم أحد (فَأْصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ) .

٥. تهديد شديد لقريش ولكل مكذب بالله ورسله .

٦. أن الله لا يهلك أمة من الأمم إلا بعد إرسال الرسل وإقامة الحجة عليهم .

٧. أن أكثر الناس لا يؤمنون .

٨. سنة الله التي لا تتخلف في الظالمين ، يُمتعون قليلاً ثم يُهلكون .

والحمد لله رب العالمين

أخوكم / سليمان بن محمد اللهيميد

١/٨/١٤٤٥هـ